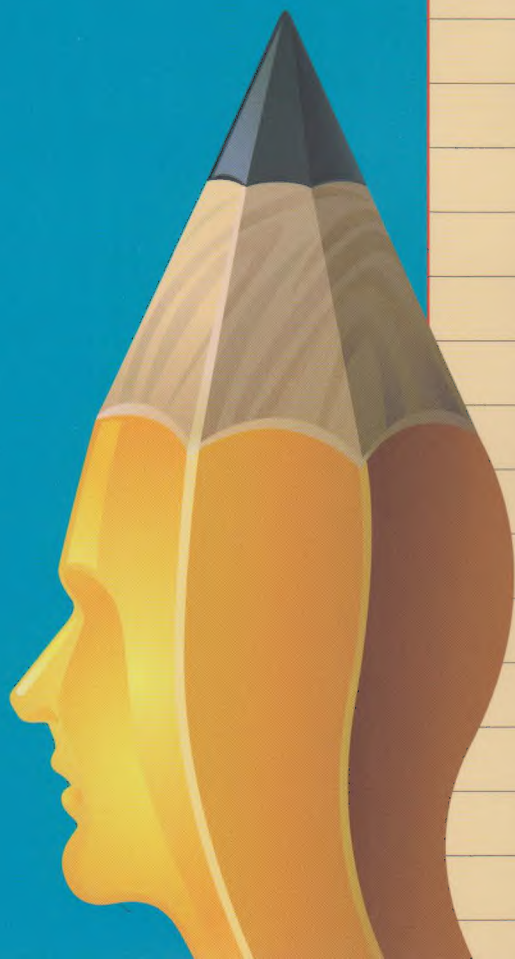
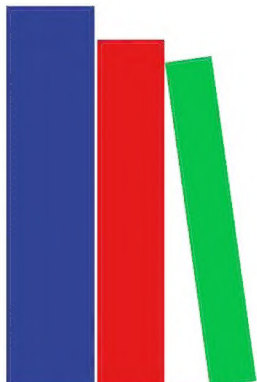


كيف تصبح كاتباً

بقلم
محمد السيد

دار القلم
دمشق





مكتبة مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.

(الإمام الصادق ع)

moamenquraish.blogspot.com

كيف تصبح
كاتباً

أسَّسَهَا
مُحَمَّدٌ بَنِي دَوْلَةَ
سَنَةِ ١٩٦٧ م

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

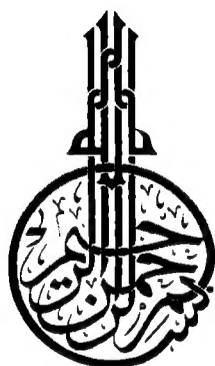
دار البشير - جدة

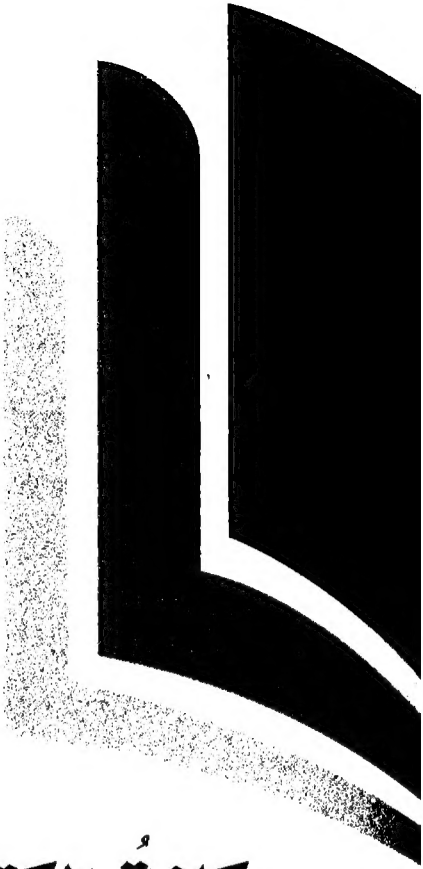
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

كيف تصبح كاتباً

بقلم
محمد السيد

دار القلم
دمشق





الفصل الأول

مكانة الكتابة والكتاب

١ - تمهيد:

يتبوأ الحرفُ العربيُّ مكانةً أولى في معركة إثبات الذاتِ لأمةِ الإسلام، لذا فهو يخوضُ لُججاً من المحاولات في الطريق إلى توضيح الوجه الحقيقي لمستقبل الأجيال القادمة من هذه الأمة.

ذلك الوجه الذي يحملُ سماتِ دينِ الإسلام، ويؤشّر إلى تبني هذه الأجيال العودةَ إلى ينبوعها الأصيل، وسبيلها القويم، المؤسّس على عقيدة ربانية، نزل بها الروحُ الأمين على قلب رسولٍ حبيبٍ ﷺ، حمل الأمانةَ إلى الناسِ بقوةٍ وعدلٍ وإخلاصٍ، فسرت تلك العقيدةُ الإسلاميةُ وشريعَتُها وسلوكياتُها في أجيالِ الأمة على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان، تحمّلها حروفٌ نورانيةٌ، انتشرت أشعُتها من خلال كلمات كتاب الله العظيم (القرآن الكريم) الذي تناولته هو والحديث الشريف أعلامُ الكتاب والعلماء بالشرح والتفسير والبيان، والتوصيل إلى كل الأنحاء من هذا العالم.

وكان لدور القلم والكتابة المكانة الأولى في انتشار الخير العميم، خصوصاً عندما كان هذا القلم يخطُ خطه من خلال العمل والقدوة والالتزام بما جاء في الكتاب والسنة.

ولا بدّ من الإشارة في هذا التمهيد إلى حقيقة راسخة في مسيرة هذه الأمة؛ ألا وهي: أنَّ المعجزة الأولى والأساسية في حياتها كانت وما تزال وإلى أن يرث الله الأرض ومن فيها وما فيها، متمثلةً في كتاب الله الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وهي ذلك ما يشير إشارة مباشرة وواضحة إلى أهمية الكلمة الهليغة الملتزمة القوية الخالصة في بناء الأمم، وصناعة الأجيال، إذ إنَّ أول ما نزل على قلب رسول الله ﷺ من القرآن الكريم العظيم: ﴿أَقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، فكانت شعاراً ورمزاً وعملاً في أمة أمّية، تحوّلت خلال عقودٍ من الزمان قليلة إلى أمة قارئة، عالمة قائدة للأمم، وذلك بسحر الحرف الرسالي وبيانه السامق العالي.

٢ - ما جاء في أهمية الكتابة والكتاب.

لا يستطيع أحد أن يماري في أهمية الكتابة والكتاب وأثرهما في الأمم، سلبية كانت تلك الآثار أم إيجابية، وأنَّ هؤلاء الكتاب

- كتاب الفكر أو العلم أو الأدب - هم الذين بأقلامهم تسطرّ مصائر الأمم، وبأقلامهم تتضح معالم الحاضر والمستقبل.

ولقد عظم ربُّ العزة الحرفَ ومن يَسْطُرُونَهُ من ملائكته، فأقسم بالحرف وبالكاتبين له، فقال جلَّ من قائل: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، فالحرف، والقلم، وما يسطر به: كلُّها أدواتُ حرفةِ الكتابة، استحققت لأهميتها أن يقسم ربُّنا بها.

وقد بين الله لنا نحن البشر أيَّ سبيلٍ نتبع لنصل إلى فضيلة العلم والمعرفة، فقال ﷺ في محكم الكتاب العزيز: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤]، فلا يمكن أن تمتلك أيُّها الأخ الكريم ناصيةَ العلم، ولا يمكن أن تستخوذَ على أدوات المعرفة إلا عن طريق القلم، أي الكتابة والكتاب والكتاب، فكم هي عظيمة تلك المكانة والمهابة لهذه المهنة الراقية، إذا التزمت بقيم الحقِّ والهدى والفطرة الإنسانية التي خلق الله الإنسان عليها!.

ولقد ميّز ربُّنا ﷻ ملائكته الكتبةَ على غيرهم من الملائكة، فذكرهم وحدهم بمهنتهم، إذ قال في محكم الكتاب العزيز: ﴿بِأَيْدِي سَفَرٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥ - ١٦]، والسفرة هم كتاب الأسفار من الملائكة؛ فهم كرامٌ بررة،

لأنهم كانوا أمناء أعظم ما تكون الأمانة على ما استُحفظوا عليه من كتابةٍ للأقدار والآيات الربانية.

وليس هذا الذي أبديناه من بيانٍ لأهمية الكتابة والكتاب هو نهاية المطاف في بابهِ.. بل إنك أخي الكريم سوف تجدُ في سطورنا القادمة مزيداً من البيان في هذا المجال، ليس آخره ما قاله الأصمعي لرجل: «ألا أدلُّكَ على خليلٍ؛ إن صحبته زانك، وإن احتجت إليه مانك^(١)، وإن استعنت به أعانك؟ قال الرَّجُلُ: نعم، فقال: عليك بالأدب».

والأدب نوعٌ من الكتابة يكتبه كتابٌ مبدعون، يقفون في قمةٍ قائمةٍ الكتاب، لِمَا لهم من تأثيرٍ نفسي وحركي وعلمي في نفوس الناس ومشاعرهم ووجدانهم.

ويكفي أن نذكر في هذا المجال أن أربعةً من الكتاب المسلمين قد بويعوا بالخلافة وهم: عثمان، وعلي، ومعاوية رضي الله عنه، ورابعهم عبد الملك بن مروان رضي الله عنه.

ولا ننسى ما وصل إليه كثيرٌ من الكتاب من مكانةٍ وقدرٍ من مثل: الفتح ابن خاقان، والصاحب إسماعيل بن عباد وغيرهما...

(١) قام بكفايتك.

وقد قال الشاعر أبو الفياض الصابي في مدح الصاحب
ابن عبّاد:

أَقَالَ اللهُ لِلْأَقْدَارِ سِيرِي

وفي أقلام إسماعيل صيري^(١)

وهذا ابنُ الروميّ يقولُ في مدح الكتابة والأقلامِ الكتابةُ
شِغْراً طيباً:

كَذَا قَضَى اللهُ لِلْأَقْلَامِ مُذْ بُرِثَ

أَنَّ السُّيُوفَ لَهَا مُذْ أُرْهِفَتْ خَدَمٌ^(٢)

وقد قيل قديماً: «قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ».

وقال سُقْرَاطُ: «مَا بَنَتْهُ الْأَقْلَامُ لَمْ تَطْمَعْ فِي دُرُوسِهِ
الْأَيَّامِ»^(٣).

فَالْعِلْمُ لَا تَثْبُتُ مَنَفَعَتُهُ وَتَدْوُمُ إِلَّا بِالْكِتَابَةِ، إِذْ لَا تَطْمَعُ
الْأَيَّامُ حِينَئِذٍ فِي انْدِثَارِهِ وَذَهَابِهِ أَدْرَاجَ الرِّيحِ بِفَعْلِ النِّسْيَانِ
وَأَفَاتِ اللِّسَانِ.

(١) محاضرات الأدباء، ص ١١٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

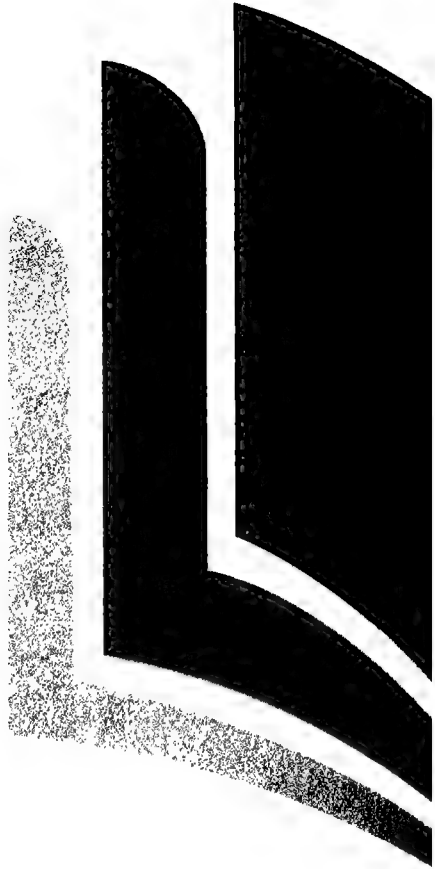
(٣) المصدر السابق، ص ٤٩.

وكلُّ هذه الأهمية للكتابة والكتاب، وكلُّ ذلك القدر الذي للكتاب نابعٌ من أنَّ هذه المهنة تحتاجُ إلى إمكانيات مضاعفةٍ، وذكاءٍ فائقٍ؛ لأنَّ صاحب هذه المهنة يحتاجُ إلى التفكير بالمعاني، وإلى اكتمالها في قلبه ومخيَّلته، ثم إلى بيانٍ ناصعٍ واضحٍ، في حروفٍ وكلماتٍ وجملٍ، يخطُّها قلمٌ ثابتُ الجنانِ، عالي البيانِ، ملتزمُ العقلِ والقلبِ والجوارحِ بقيم الربِّ الديانِ، الذي أرادَ لهذا الإنسان الهدى والصلاح في هذه الدنيا، والفوز والفلاح.. ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

وانظر - أخي القارئ - إلى ما تركه الأستاذ سيد قطب من أثرٍ عظيمٍ في الأجيال، كما تنبّه إلى ما تركته كتاباتُ الشيخ محمد الغزالي والشيخ الدكتور يوسف القرضاوي من تأثيرٍ وتعديلٍ في سلوك وأفكار الناس، وليس هؤلاء الذين ذكرنا إلا القليل من الكتاب الذين امتدَّ أثرهم وتأثيرهم، فكان الناسُ تبعاً لما نشروا من أفكارٍ بأقلامهم التي سطرَتِ الفكر والأدب.

الفصل الثاني

الموهبة





١ - نظرة في الواقع .

افتح ناظريك، وأبحرْ معي في أسواق المدن العربية، ولنتوقف عند المحلات التي تسمّى مكتبات، وهناك أمعن النظر في صدورِها المأزومة بشتّى البضائع المصفوفة داخل كل غلافين، حاول أن تفتح الأغلفة، لتكتشف البضاعة الملقاة أحرفاً وكلماتٍ وجمالاً داخل تلك المجلّدات، وسوف تجدُ بعد كدّ الدّهن والعين، أنّ الأمور في الغالب الأعمّ تربض خلف الوهم، ولا تتعدّى الثروة الشاحبة الألوان، الباهتة الطّعم، هذا إن لم يكن الأمرُ أجلاً وأخطر، إذ تعودت العينُ على الوقوع في زاوية مرمى تشويه الحُلم، ذلك الذي ذهب منه الشادون من مدّعي أرباب القلم هذه الأيام إلى إلقائنا على بوابات الفجيعة من خلال رمينا بسهام حروفهم وكلماتهم النابية عن مرمى الإبصار الجمعي لهذه الأمة تاريخاً وحضارةً وعقيدةً.

وإنَّكَ إِن حاولتَ فهم شيءٍ ممَّا يدورُ في ساحةِ الحروفِ العجماوات؛ لعاجلك أَلُمُ الشعور بأنَّ ذلك الغثاء كُلَّهُ ناتجٌ من عدم الاعتبار بالنطق الأعلى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

فارتادَ كُلُّ مَنْ هَبَّ ودبَّ ساحاتِ الكتابة، مؤيِّداً ومدعوماً بأسلحةِ بعضِ الناشرين من الذين أضاعوا الأمانة، وجروا خلفَ التجارة، التي تلهبُها وتسيلُ لعبها الأسماءُ المتداولة بغضُّ النظرِ عما تريقه أعلامهم فوق القراطيس من دماء الفكر والأدبِ البريئة.

٢ - ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾

وإذن فالكتابةُ فنٌّ يقومُ أوَّل ما يقومُ بالموهبة، ويقتله ويأتي على الإبداع فيه الادِّعاء، ويجبُ أن يعلمَ صاحبُ الموهبة أنَّها مخلوقةٌ فيه، وأنَّها من صنع الله الذي أحسنَ كلَّ شيء خلقه: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧].

فهو لا يدلُّ ولا يضلُّ ولا يتيه بتلك الموهبة، بل هو على العكس من ذلك، يحاولُ التواضعَ مع بذلِ الوسعِ لتوظيفِ المنحةِ الربانية، وتنميتها ورعايتها، لتكونَ في

خدمة الاستخلاف الرباني للإنسان المتمثل في العبودية لله، واستعمار الأرض، وتسهيل الحياة عليها وترقيتها، بحيث تستقيم على النهج القويم، الذي أرسل الله به جميع الأنبياء، من لدن آدم ﷺ وحتى رسولنا الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

والبيان من أعظم الهبات الربانية للإنسان، إذا راعى فيه حقَّ الله، ووظف موهبته في هذا الاتجاه، أنتج الخير العميم لهذا الإنسان، لذا كان من الضروري والواجب على كل مؤمن يُحسُّ أنَّ لديه موهبة البيان، أن لا يتوانى عن السير في ركب صقلها وتنميتها ورقيتها، ثم الخوض بها في سوق البيان، الذي ازدحمت فيه الأصوات الشاذة، والأقلام المشبوهة، والترجمات المغرضة، وكادت أن تغطي على البيان الأبيض الناصع، الذي ساهم في تأخر خطواته كثير من المسلمين القائمين على نشر الكلمة الطيبة وإذاعتها بين الناس، تأكل قلوبهم في ذلك منازعات التجارة والربح، ومناكفات أن يخرج أي عمل على الهوى الذي يريده هؤلاء.. لا بل إن الحسد الحالق لكل خير قد يكون أحد آكلات القلوب والمواهب..

بينما نرى أنّ ما يجري على الضفة الأخرى من المشهد الثقافي يتمّ بصورة عكسية تماماً؛ إذ تُشجّع أية موهبة وتقدّم، وتشتهر، ويعلى مقامها لمجرد أنها تصبّ في اتجاه مضادّ لمنهج البيان الرباني المنجي، كما أنّه يفسح في المجال لمنظومات الرأي وكلمات البيان، الذي يريدُ تفجير اللغة وتشكيلها من جديد، بحيث يضيع كلّ البناء الثقافي المذخور في حروفها منذ خمسة عشر قرناً وحتى اليوم.

كما رأينا ارتفاع قاماتٍ ما كانت لتظهر - حتى ترتفع - لولا أنّها وجدت نفسها محاطةً بناشرين يذيعون كلّ كلمة تافهة تقولها، وكلّ صيحةٍ شرّ تنطلق من بين شفاهها، ثم تُزفّ كلّ تلك الخبالات بأنواعٍ متنوعة من الزخرفة والدراسات، والقول وإعادة القول، والردّ وإعادة الردّ، حتى يصل الردح والتكرار إلى أبعد نقطة وآخر فرد في بوادي العرب ومُدنهم.

٣ - بماذا تتجلّى الموهبة وتُعرّف؟

وعودةً إلى موضوع الموهبة نقول: إنّ الكتابة عمليةٌ إبداعيةٌ، إذ إنّها تقوم على تشكيل الصور، وتوصيل المفاهيم والآداب والعلوم، والفكر القويم إلى الناس، بواسطة اللغة وأبجدياتها..

فهي بهذا عملية تكوينٍ وتشكيلٍ منطلقَةٍ من قلب المنحة الربانية «الموهبة» المحاطة بهالة من التوفيق الرباني إن استُخدمت في السبيل القويم.

لذلك فإنّ العناصر التي تكوّن وتطلق الموهبة، أو بمعنى آخر: التي يتعرّف الشخص بها إلى وجودها عنده، وأنّه قادرٌ على عملية الكتابة، وإيصال الأفكار، والصور والمفاهيم إلى الناس بواسطة الحروف والكلمات والجمل.. إنّ هذه العناصر تتمثّل فيما يلي:

أ - الذكاء الجيد:

إذ إنّ عملية التشكيل تحتاج إلى فكر تحليلي وتركيبّي، ثم إلى قدرة على مزج المفارقات، ووصل الجملة بالأخرى، حتى تصل إلى تكوين فكرة عامة يُرادُ إيصالها إلى الناس.. وهذا لا يتسنى إلا إذا توفّر الذكاء الجيد، فإذا لمس الفرد في نفسه القدرة على طرح الأفكار، وإمكانية انتقاء الصالح منها، والقدرة على التعبير عمّا جاء فيها شفهيّاً، ثم لاحظ قدرته على التأثير في الآخرين، واستحسانهم لما يقول، فيعلم أنّ ذكاءه الكتابيّ خامَةٌ قابلةٌ للانطلاق في سوق

الإبداع الكتابي، فليتوكل على الله، وليبدأ السير في المهمة بالخطوة الأولى، طالباً العون والتوفيق من الله: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ فَتَمَنَّ أَنْ تُبَدَّلَ الْوَعْدُ﴾ [النحل: ٥٣].

ب - الخيال المتوازن:

فعملية الكتابة (والأدبية منها بصورة خاصة)، تحتاج إلى تكوين الأشياء والأفكار في مخيلة الكاتب، قبل أن يسطرها بقلمه على القرطاس، ومن الطبيعي أن يلتزم هذا الخيال بالهدي الرباني، فلا يكون شططاً، يركض خلف الأحلام المريضة، أو الأحلام الجامحة مستحيلة التحقق، فيكون الإخفاق في الوصول إليها سبباً في اليأس أو التشاؤم أو الاكتئاب، وكل ذلك معادٍ للفطرة الربانية، التي أباحت للإنسان أن يتخيل وينشئ الحلم المتوازن، الذي يخدم خلافته عن الله في الأرض.

ولقد كانت أحلام كثير من أدباء الغرب الأوروبي في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين متجهة إلى دواخلهم، ومسافة إلى بواطنهم، التي انطوت على عجز بعيد الغور عن التواء مع مجتمعاتهم، التي هزتها النُّقْلة الرأسمالية الإنتاجية، فراحوا يحلمون بمجتمعات خيالية

أنتجتها دواخلهم غير السوية، السارحة في رؤى فوضوية من كل الأنواع، لذا فقد جاءت نصوصهم التي أنتجوها انطلاقاً من هذه الخيالات، مغرقة في التخبط والجنون والخيال^(١).

ولكن كيف يتسنى للناشئ أن يكتشف وجود مثل هذا الخيال ضمن ملكاته التي وهبها الله إياها؟..

وللإجابة على هذا السؤال نقول: إنّ من السهل على الإنسان المثقف أن يطرح الأسئلة التالية على نفسه:

- ١ - هل يتقن الربط بين الفكرة والفكرة؟.
- ٢ - هل يكثر من السؤال عما حوله، وما يسمع من أقوال وما يرى من أعمال؟.
- ٣ - هل يحب الاختلاء بنفسه في لحظات تأمل؟.
- ٤ - هل يتقن التنبؤ بالنتائج النابعة عن تحليل مُحْكَم؟.
- ٥ - هل يستوعب آفاق الآخرين؟.
- ٦ - هل لديه القدرة على استعمال أساليب جديدة في التعبير؟.

(١) انظر: شكري عياد، المذاهب الأدبية والنقدية، سلسلة عالم المعرفة الكويتية.

هذه بعض الأسئلة المقترحة من الممكن أن يلقيها المرء على نفسه، فإذا وجد أن أكثرية الإجابات إيجابية، فقد تحقق فيه عنصرُ الخيال المناسب، وهذا يؤهله لركوب الطريق من بدايته، بعد طلب التوفيق من الله، ثم الجد والدأب والرعاية والممارسة، فكل ذلك كفيلاً بوصوله إلى النتائج المرجوة، ليكون كاتباً باتجاه رباني رشيد.

ج - الهمة العالية والثقة بالنفس:

ليعلم المؤمنُ المتتوق إلى امتلاكِ ناصية الكتابة أنه في ساحاتِ مصارعة، سبق فيها لمن يمتلك الأدوات، التي أهمها علو الهمة، وسمو الهدف، والثقة العالية بالنفس بعد التوكل على الله، وطلب التوفيق منه:

وما نَيْلُ المطالبِ بالتمني

ولكن تُؤخَذُ الدنيا غلاباً^(١)

وإذا كانتِ النفوسُ كباراً

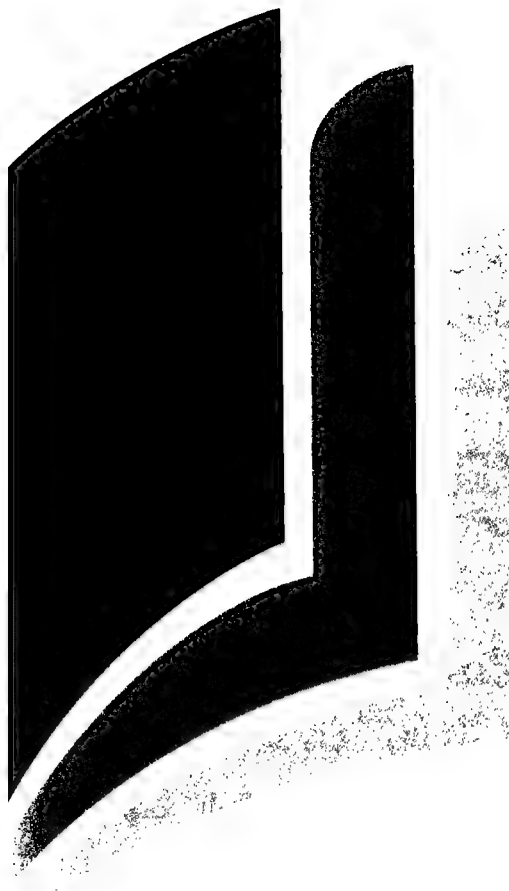
تعبثُ في مُرادِها الأجسام^(٢)

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي.

(٢) البيت لأمير الشعراء أحمد شوقي.

فلتكن أخي الكاتب المؤمن من ذوي الهمم العالية الغالية، الواصلين بخطوهم، المصممين على الفوز في ساح الكلم الطيب الخير، وليكن قدوتك في ذلك حبينا ونينا محمد ﷺ، إذ جاءت قریش بزعمائها يعرضون عليه كل ما يغري، على أن يترك الأمر الذي أرسله الله به، فما كان جوابه إلا أن قال لهم بأعلى همة، وأعظم ثقة، وأقدر تعبير: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله، أو أهلك دونه» أو كما قال ﷺ.

وأنت أخي الكريم إذا تحققت لك هذه الثلاثية الموهبية من: المنحة الربانية، والذكاء العالي، والخيال المتوازن، والهمة العالية، والثقة بالنفس، فلتمسك بأول الطريق، ولتمض به مسلماً بأدواته التي ستتطرق إليها في فصل قادم إن شاء الله.





الفصل الثالث

تنمية الموهبة

١- المؤمن والكتابة

إنَّ وعي المؤمن بنفسه، ووعيه بربه وخالقه، وفهمه لمهمته في الحياة من خلال الوعيين السالفين، يجعله يختار لنفسه الطريقَ السديد الذي يتقنه، للتعبير عن عميق إيمانه، وفهمه لمغزى وجوده المذخور في خلة عظيمة رائعة هي «التبليغ»؛ تلك الخلة التي يُبنى عليها صلاحُ الحياة، وصلاح الإنسان، وعلاقاته بالكون، وبالإنسان الآخر وبالحياة.

وإنَّ مراكبَ اللغة والبيان هما أهمُّ ما يحملُ التبليغُ في طريقه إلى الآخر.. وكلِّما كانَ البيانُ عميقاً بليغاً مؤثراً ازدادت مساحةُ انتشاره أفقياً وعمودياً.. وهذا ما لا يملكه إلا أصحابُ المواهبِ والمنحِ الربانية.

فهل يكتفي صاحبُ الموهبة بالمنحة، ويقعد عندها لا يتجاوزها؟ أم أنَّ هذه المنحة محتاجةٌ إلى اتخاذ الأسباب،

من أجل ترقيتها ونمائها وصقلها، وجعلها متأهبة دائماً للأخذ بالأفضل والأبلغ والأقدر على الوصول إلى الناس؟.

دعك من قول القائلين العابثين: (الفنُّ للفن!) والكتابة الفنية لا تحتمل الغرض، فهو يفسدُها!.. لأنَّ هذا الاتجاه عبثٌ كله، غشَاءٌ كله، تدميرٌ كله، فالقولُ مثلُ العملِ، إن لم تترتَّب عليه منفعةٌ وفائدةٌ للإنسان، تجعله دائماً قريباً من السداد والرشاد، يكون صاحبه كمن يقفزُ في الهواء بلا هدفٍ، فهو إما أن يرتطمَ بأيِّ شيءٍ فيحطمه، أو يضيعَ مع الريحِ في الفضاء، مضيعاً كل من صدقه في لحظة من اللحظات.

والمؤمنُ الذي يكتشفُ موهبته في الكتابة، مدعوٌ إلى اتخاذِ كلِّ الأسبابِ لامتلاكِ ناصيةِ البيان، واعتلاءِ أرفعِ صهوةٍ من صهواته، وذلك بغيةً ارتقاءِ شممِ التبليغ، والوصولِ من أقصرِ الطرقِ وأسهلها وألينها قبولاً، وأبلغها أثراً، فهو على علمٍ أكيدٍ أنَّ هذه الموهبة ليست للتسلية والعبث، أو التضليل والإفساد، بل هي عاملةٌ في صميمِ الحياة الإنسانية؛ ترقية، وإعلاءٌ للقيم، وخدمةٌ للإنسان، مهتدية بالإيمان العميق، المنطلق من قول رسول الله ﷺ: «الخلقُ عيالُ الله، أقربهم إلى الله أنفعهم لعياله»... وليس أقدرهم على الولوغ في

تحريك غرائزهم، وتحريض حيوانيتهم، وقتل القيم فيهم ببث
فلسفات مزاجية أهوائية، يصنعها خيال الإنسان وعقله القاصر
عن بلوغ مرامي القضايا الكبرى، بعيداً عن الهدى الرباني..

وأولئك مَنْ قال فيهم الأديب الرفيع مصطفى صادق
الرافعي قوله مفحمةً رادعةً مرددة: «ناهيك بها عقولاً ضيقة
معتلة، غلب عليها الكيد، وأفسدها التقليد، ونزع بها لؤم
الطبع شرّ منزع، حتى استهلكها ما أوبقهم من فساد الخلق،
وما يستهوهم من غوايات المدنية.. وكانوا في العلم
كالنبات الذي خَبِثَ»^(١).

٢ - تنمية الموهبة:

إنَّ النطقَ بالكلمات، أو نقلها مباشرةً من حاضنتها
في فكر الكاتب ومخيّلته إلى الورق كلماتٍ منظومةً أو
منثورةً، ومعاني رفيعة مجتحة بالصور والبيان العالي، عمليةٌ
تستوحي كلّ المخزون الثقافي والفكري والروحي للكاتب،
وتستحضر الخبرة والتجربة الإنسانية التي مرّت به، لتقوم

(١) مقدمة الطبعة الثالثة من: إعجاز القرآن، نشر دار الكتاب العربي، ص ٩.

جميعاً في حشدٍ كلِّ الألفاظ والمعاني المناسبة للتعبير عن التجربة الشعورية، التي يمرُّ بها هذا الكاتب في لحظةٍ ما... وإذن فإنَّ الموهبةَ المذخورةَ تستنجد في زمن ما بكلِّ الجهود والتجارب والخبرات التي تُبذلُّ من أجل الوصول إلى تعبير رفيع مؤثّر فاعل نافع.

فهل من سبيل لمعرفة وسائل تنمية موهبة الكتابة عند من يجدها في نفسه من المسلمين؟.

نعم.. وإنها أسبابٌ تتعلق:

* بالعقيدة والسلوك والخلق.

* بالاطلاع الواسع على فروع المعرفة.

* بالاطلاع الواسع والمستمر.

* بالمران والتأدب، والتجريب، وتهذيب اللسان.

* بفهم الجوِّ الذي يعيشه (حياة وثقافة المجتمع المحلي وغير المحلي).

* بإتقان مهارات العصر الذي يعيش فيه.

وإننا في بقية السطور من هذا البحث، سوف نلقي الضوء على البند الأول من أسباب تنمية الموهبة، ونعني به:

البند الأول

علاقة العقيدة والسلوك والأخلاق بترقية الموهبة وتنميتها

قال ابن قتيبة: «ونحن نستحبُّ لمن قبل عنا، واثمَّ بكتبنا أن يؤدَّب نفسه قبل أن يؤدَّب لسانه، ويهذَّب أخلاقه قبل أن يهذَّب ألفاظه، ويصونَ مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعته عن شينِ الكذب»^(١).

وإنَّه لما كان فنُّ الكتابة والأدب سبيلاً عظيماً يقود إلى نفع الإنسان والارتقاء به وبحياته في دروب الحياة الشاقَّة، كان أهلُ الكتابة محتاجين أشدَّ الحاجة إلى إيمان راسخ، وسلوك نظيف، ولسان نقي نزيه، لأنَّ مَنْ لا يملك ذلك منهم يكون وبالاً على نفسه وعلى الناس، فيفسدُ حياتهم، ويؤثر تأثيراً سيئاً في سلوك الأجيال، وفي علاقاتهم وأخلاقهم، ويؤدي إلى اعتلال صيغة الحياة اليومية التي يعيشونها.

وبما أننا نتكلَّم في بحثنا هذا عن الكاتب المؤمن وصاحب الموهبة المسلم، فإنَّ أوَّل سببٍ من أسباب

(١) أدب الكاتب، ط. ثانية، دار الرسالة، ص ١٤.

ترقية هذه الموهبة وتنميتها يتمثل في الالتجاء إلى العقيدة؛ فقد ذمَّ الله تعالى الشعراء بقولٍ نهائي حاسم، إذ بيَّن جَلَّ شأنه ذلك في سورة الشعراء فقال: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧].

ويقاس على الشعراء في هذا الحكم كتابُ الأدب جميعاً..

وقد استثنى ربنا ﷻ من هذا الذم أصحاب العقيدة من الأدباء، الذين آمنوا بعقيدة الإسلام، وألحقوا الإيمان والكلام بالعمل، وسلكوا مسالك الصالحين خلقاً وتصرفاً، قولاً وعملاً، وكتبوا ما كتبوا من أجل هدف واحد، هو الانتصار لقوى الخير ولمبادئ الصلاح، التي تسيِّرُ بالإنسان إلى شواطئ النجاة في الدنيا والآخرة..

وبهذا الاعتبار فالكاتب محتاجٌ إلى الانطلاق من التصور الإسلامي للكون وللإنسان وللحياة، كي يستقيم لسانه، ويفلح عمله، وينتقل بالناس إلى ساحات النقاء وميادين

التعايش والسلام الاجتماعي والسياسي والحياتي، وإلا كان كالملاح في المحيط بلا بوصلة في ليلة عاصفة مظلمة.

وليس كالرؤية الربانية رؤية تقود الإنسان عامةً، والكاتب الطليعي المؤمن بسلام في خضمّ الموج المتلاطم من الضياع الإنساني العصري خاصةً، ولا تغرنك عظمة الأسماء المطروحة، وكمية الجوائز المزجاة لهذا الكاتب أو ذاك، فهذا كله مبنيٌّ على رؤى ومنطلقاتٍ تائهةٍ خلف النسخة الأصلية المتبناة من أصحاب الجوائز..

وإذا أردتَ التأكدَ من ذلك فانظر في محيطك، ثم انطلق إلى المحيط العالمي.. لتجدَ أنَّ أعظمَ الأسماء وألمعها لم يقدم للإنسان طريقاً سديداً للخلاص.. صحيحٌ أنَّ بعض هؤلاء قدّم صورةً دقيقةً وواقعيةً عن الذي يجري على الأرض بعُجْره وبُجْره، على أنّه الشيء الإنساني العظيم، إلا أنّه عندما اكتشفَ هذا البعضُ أن هذا الواقع غيرُ سديدٍ حاول التشخيص، لكن واحداً من هؤلاء لم يقل للناس: أين هو الطريق السديد! ولم يجب على الأسئلة الخالدة التي تواجه الإنسان في هذه الحياة إجابات سديدة، بل إنهم قادوا الإنسانية إلى جراحٍ دميت، وتقيّحت، ثم تحولت إلى حفارٍ يحفر في أركانِ وأساساتِ

الإنسانية وإيمانها وسدادها، بل إن اتجاهات الصورة الأصلية للكتابة، وظلها الببغاوي أوصلا إلى هذه الفوضى الفكرية والسلوكية التي نراها اليوم، وإلى صيغة الهيمنة التي تسوق كل الأمم إلى مصير واحد، تؤدي فيها هذه الأمم استحقاقات الرفاه لشعب واحد، أو شعوب بعينها، تحاول فرض رؤاها ومستهلكات عقولها المادية وروحانياتها الخاوية على بقية الشعوب بالقوة، تحت ذريعة العولمة وذراعتها الواصلة..

والخلاصة: أن الكتابة ليست هدفاً، بل هي إحدى الوسائل لإنقاذ الإنسان من برائن الظلم الواقع عليه؛ من نفسه، ومن محيطه القريب والبعيد، فإذا لم يكن الكاتب مؤمناً ذا عقيدة ربانية راسخة، تمتلك عليه لسانه وقلمه وأفكاره، ينظر بنورها، ويتكلم إذا تكلم بلسانها، ويجري قلمه على الورق بهدي منها، ونور ينطلق من شعاعها، حاملاً في كل ذلك رؤاها وأجوبتها المتعلقة بحياته ومماته، وحياة الناس وعلائقهم ومسيرة حياتهم، والمآل النهائي الذي تصل إليه هذه الحياة، إذا لم يكن الكاتب كذلك، فإن منحرجات الهوى تستولي على فكره وعقله ومزاجه، فيضيع، ويضيع من خلفه، مهما نبغ اسمه، وعلا رسمه، أو أقبل الناس على قراءته، لأن هذا

الإقبال حينئذٍ تابع لعملية الضياع، التي تدور رحاها الرهبة في عالم الكتابة المعاصرة، إذ إن كمها الرهيب، ووسائلها الطاحنة، يأكلان كلَّ توجهٍ جادٍ لإنقاذ الناس من محاولات العولمة للفصل التام بين الثقافة والقيم والمعتقدات، وذلك من أجل تجاوز المعتقدات وقيمها، وإلقاء الإنسان في دوامة تبتله بعد أن يصل حدَّ الإعياء، ويفقد كل قواه وخصوصياته!.. وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٢].

البند الثاني

الاطلاع الواسع على فروع المعرفة

١ - كلام في المعرفة:

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١ - ٣٢].

كم تحنُّ كلماتُ هذه الآيةِ إلى حروفٍ من ذاتها خرجت، وعلى هديها وفي حجرها ترعرعت ونمت وأغدقت، إنها حروفٌ وكلماتُ رسولِ الهدى محمد ﷺ، يقول فيها للناس - مع تغير الأزمان والأمكنة -: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفْقِهْهُ فِي الدِّينِ»... والدينُ هنا هو علمُ الحياة على تنوعه؛ ما يتعلّق منه بشأن الإنسان مع ربه، أو بالأُمور التي ترعى شأنه في حياته اليومية، أو شأنه في مآله ومرّده، وكذلك شأنُ الفكر والرأي والنظريات التي تطوّر أساليب الحياة وتجدها، وتحسّن الحياة اليومية وتيسّرها، من علم طبيعي وطبي وفلكي، ونظر فلسفي.. وكلُّ ذلك مهموّرٌ بخاتم كلمات الله الفذة: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» [الذاريات: ٥٦].

فهذا الإنسان مخلوقٌ بقدر، ولأمرِ أَراده الله، هياً له كلّ الأسباب لينتهي إلى النهايات التي قدّرها بعلمه القديم، فالأرضُ والسماءُ وما فيهنَّ ومن فيهنَّ كلّ ذلك مسخَّرٌ باتجاه وضع هذا الإنسان -المقدّر والمراد - في حومة التجربة البشرية الموجهة بكلمات الله العظيمة التي هي أساسُ المعرفة الحقّة، فإذا حادت التجربة الشخصية لأيّ إنسان، أو التجربة الجماعيّة لأيّ مجموعة بشرية عن خطوط الهدى الرباني في

المعرفة، فإنّ ذلك قائدٌ حتماً إلى بوار الحياة الشخصية أو الجماعية، مهما بدا للناس من مظاهرٍ قد تخالفُ هذه الحقيقة، وذلك لأنّ هذه الصورة تشكّلُ في الواقع اقتلاعاً لهذا الإنسان من جذوره، من فطرته، من الطريق الواضح النير إلى الظلمة والضياغ.. وهذا هو أصلُ وأساسُ كل ذلك الضنك الذي تعيشه البشرية اليوم، عندما ضيعت بؤصلتها الربانية، وراحت تتخبّط وراء نظر كتابٍ، وضعوا الهدي الرباني في قائمة المنسيات، أو في قائمة المتروكات الغابرة، وذلك ليجعلوا من أنفسهم وكلماتهم الهائمة على وجهها دساتيرَ جديدةً للبشر.

فمنهم من أراد أن يجعل من الشعر - كونه شاعراً - بداءة الفكر والعلم والينبوع القديم^(١).

ومنهم الذين راحوا ينظّرون للبشر، ويفكّرون عن الناس، ناسين أنهم مخلوقون لخالقٍ رسم خطوط السعادة للبشر، وأبدع أصول النظر لهم، وجعلهم يفكرون، ويختلفون ويجتهدون، ويغدون ويروحون في ساحةٍ واسعةٍ من كيفية التنفيذ الأقرب للصواب، والأوسع لاستيعاب مستجدّات الحياة وتطوراتها.

(١) عبد المعطي حجازي: جريدة الزمان ١١/٨/٢٠٠٠م، باب ألف ياء.

ولقد جرى على هذا المنوال من التوجه معظم الكتاب والمفكرين من المتغربين والعلمانيين واليساريين ومتبني الليبرالية الغربية ببِغَاوِيَةٍ عجيبة.. فبدوا منبئين^(١) في كتاباتهم الفكرية والأدبية وحتى العلمية عن فكر الأمة، وتوجه الناس فيها، وعن مجريات ووقائع الحياة اليومية فيها، وأصبح كلُّ ما يكتبون موجَّهاً إلى نُحْبِهِم وحسب، فلا هدف لهم ولا غاية، إذ أصبحت كتابة هؤلاء تتخبط في أزمة اتصال مع الجماهير^(٢).

٢ - موهبة مطَّلعة:

قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤].. ولا يؤخذ العلم وتُنَمَّى الموهبة إلا بالتعلُّم، ويُضَيِّ الإنسان حياته بين كونه عالماً أو متعلِّماً، ولا خيرَ في غير ذلك، كما أوضح وبين وأكَّد رسولُ الله ﷺ.

فهذا آدمُ أبو البشر لم يكن يعرف شيئاً من العلم، ولكنَّ ربَّ العالمين كان معلِّمه، إذ قال جلَّ من قائل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣٠].

(١) منبئين: منقطعين.

(٢) هذا ما أكَّده كثيرٌ من الشعراء والكتاب في ملتقى أصيلة الثقافي الدولي (آب ٢٠٠٠م).

وأشدُّ الناس حاجةً إلى العلم، وأحوجهم إلى التعلم، لتنمية مواهبه وإمكاناته التي منحها الله إياها، هو مَنْ وَجَدَ في نفسه موهبةَ الكتابة، ثم ندب نفسه للاشتغال بها، وإنَّ أداةَ هذا التعلم المطلوبةَ تتمثل في الاطلاع الدائب، والبحث المستمر، والتطوير والترقي غير المنقطعين أبداً.

إنَّ الكاتبَ عامةً، والأديبَ خاصةً يتعاملان مع النفس الإنسانية برحابة اتِّساع خطوطها، وعمق تفاعلات مشاعرهما، كرهها وحبها، غضبها ورضاها، صفائها وعكرها، خيالها وواقعها، هدوئها وصخبها، وقارها وانفلاتها، حزنها وفرحها... إلخ، كما يتعاملان مع ما يحيطُ بهما من عوالم إنسانية أخرى، وأمكنة وظروف وأزمنة، وحياة اجتماعية وسياسية وتاريخية وأدبية واقتصادية وفكرية.. وما دام الأمرُ كذلك فإنَّ مدى ما يجبُ على هذا الكاتب من الاطلاع، يكونُ واسعاً ومتنوعاً بوسعٍ وتنوعٍ كل ما ذكرنا.

ولكنَّ هناك قضية هامة يجب أن ينتبه إليها كلُّ متجهٍ إلى الكتابة من المؤمنين المسلمين، هذه القضية هي أنَّ هذا الاطلاع لا يقضي بالأخذ بكلِّ ما يدفع من معرفة، بل إنَّ هذا الاطلاعُ اطلاعٌ ناقدٍ يعرِّضُ المعرفةَ القادمة منه على العقيدة وفروعها

الإيمانية، التي تشكّل الأرضية الرئيسة الأولى في قاعدة وأساسات العقل المؤمن، وتحتلّ كلّ جزئياته ونظره ورؤاه... وذلك لأنّ هذا العقل المؤمن يعلم علم اليقين أنّ كلّ ما عدا العقيدة الإيمانية وأسسها المعرفية القطعية ليس إلا ظناً خاضعاً لتقلّبات الأوقات والأمزجة والمعارف الآنية التي تتلبّس الإنسان في لحظةٍ ما، وظرفٍ معين، ومعطيات محدّدة محدودة.

ويشرح ذلك الأستاذ مصطفى صادق الرافعي إذ يقول: «لقد أثبت تاريخُ الإنسانية أنّ هذا اليقينَ الساري فيها لن يكونَ غيرَ الدين، فهو وحدَه معنى الجاذبية بين المعلوم الذي تبدأ النفس سيرها منه، وبين المجهول الذي تصير النفس إليه طوعاً وكرهاً، وما دامت الجاذبيّة فيه وحدَه فلن يستطيع شيءٌ غيره أن يقيم حدودَ الإنسانية، أو يحفظ ما يقيمه منها، وما غايةُ العلم إلا أن يكون قوة في هذه الحدود...»^(١).

والخلاصةُ في هذا الموضوع هي: أنّ الكاتب المؤمن محتاجٌ إلى تنمية موهبته، لتصبحَ موهبةً مطلعةً على التاريخ والاجتماع والأدب والفلسفة والسياسة والواقع والاقتصاد والفكر والفن.. وغير ذلك من مجالات المعرفة، وهو

(١) إعجاز القرآن، ص ١٢، نشر دار الكتاب العربي، ط ٨.

اطلاعٍ واسعٍ فاهمٌ ناقدٌ، متعاملٌ بإيجابيةٍ وسعةٍ أفقٍ، ومرونةٍ، وحسنِ انتفاعٍ، واستيعابٍ بعيدٍ عن التماهي المذيب للحدود والخصوصيات، الداخِل في صلب الضياع، الذي يجعل الإنسانَ مجردَ ورقةٍ يكتب على صفحتها الآخرون ما يشاؤون ويرغبون.

وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾... ﴿[المؤمنون: ٧١].

٣ - تقويم الأداء:

حتى يذهب الكاتب المؤمن في الطريق الآمن إلى آخره، عليه أن يتعرّف أولاً بأول على قيمة أدائه في فن الكتابة، الذي اتخذه مطيةً لغاياته التي آمن بها، ويشكّل هذا التعرّف جزءاً لا يتجزأ من عملية الاستفادة من الاطلاع.

وفي خطوةٍ ليست بعيدةً عن واقع ما يحدث لكل كاتب، فإنّ معظم الكتاب يقفون أمام أدائهم وقفةً حسابٍ في لحظة ما، سواء كانوا من الملتزمين بنهج التبليغ الإيماني، أم من الذين هاموا في كلّ وادٍ، وسرحوا بأنظارهم وبصائرهم في مراعٍ الوهم الهائل، الذي أدخلته على الجميع معطيات

عبادة العقل، أو الإنسان الفرد، أو المادة واللذة، أو حتمية العولمة، أو بالأحرى الأمركة.

والكاتبُ المؤمن الذي اتخذ التبليغَ مهنةً عظيمةً.. في أشدَّ الحاجة إلى مثل هذه الوقفة التقويمية الناقدة للأداء، وذلك حتى لا يقع تحت طائلة المسؤولية الواردة في الآية الكريمة من كتاب الله تعالى القائلة: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ [البقرة: ٧٩].

فكيف يراجعُ هذا الكاتبُ أداءه؟.

وما هي الأسئلة التي يقوم من خلالها هذا الأداء؟.

لا بدَّ أنه مراجعٌ لإنتاجه كله بين الحين والآخر، طارحاً على نفسه الأسئلة التالية أمثلةً وليست حصراً:

١ - ما هو مكانُ ما كتبتُ من كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ؟.

٢ - كيف كان الخطابُ الذي احتوته كتاباته؟.

أ - هل كان قريباً من عقول الناس؟.

ب - هل تطرَّق فيه إلى واقعهم وأحوالهم؟.

ج - هل كان أسلوبه وبيانه من النوع الذي يشدُّ الأذهان؟.

- د - هل فيه معالجات وأطروحات ترقى بأحوالهم؟
- هـ - هل بيّن فيه أخطار ما يحاصره من فكر وحتميات تحاول معهم عملية التأسيس للاستسلام لما يطرح؟
- و - هل بعث في خطابه الأمل في الخلاص؟
- ز - كيف كان استقبال الناس للخطاب؟ وما مدى تأثيره في سلوكهم؟
- ٣ - هل دخل كتاباته شيء من الفكر أو الأدب الدخيل الرديء دون علمه، وذلك بتأثير الاطلاع والتنمية؟
- ٤ - هل كانت غايته وأهدافه واضحةً بينةً في كتاباته، لا تَلْجُلْجُ فيها ولا موارد مضرّة؟
- ٥ - كيف كان مستوى الأداء؛ هل هو متصاعِدُ الجودة؟ أم في نزول؟ أم في حالة ثبات؟..
- ٦ - ما هي الفوائد التي جناها من الاطلاع؟ وأين كانت مجيدة نافعة؟ وأين كانت عديمة الفائدة أو مضرّة؟
- فإذا تمّ له ذلك، ووضع علامات لكل سؤال، ثم جمع حصيلة الحساب؛ نظر؛ فإن كانت النتيجة عاليةً حمد الله،

وأثنى عليه أن وفقه لمثل هذا النجاح، وسعى جاهداً للتطوير والتحسين.

وإن كان الأمرُ غيرَ ذلك لأمَ نفسه وأنبها، وسعى من جديد كي يقومَ الاعوجاجُ بعد أن شخّصه.. هذا والله أعلم.

البند الثالث

الاطلاع الواسع والمستمر

١ - البرعم يتطوّر:

أرأيت إلى البرعم يحاورُ خيوطَ الفجر، من أجل أن تفتّح أوراقه، وتنفّضَ أكمّاه عن أجفانها ندى النوم، وذلك لتدخلَ صخب الحياة، مسلحةً بالشذى، ترسلُهُ إلى كل الأنحاء، لتحصلَ على الثقة ثم الإعجاب، ثم الاتجاه إليها كي يرشّفَ منها المرتشفون ذلك اللون الرائع، والجمال المتناسق، والعطر الرباني الحالم.

ذلك هو مثل الإنسان المبدع، يفتّح ويتطوّر وترتفع قامته وتنهض، كلّما ازداد حواراً مع كلّ ما حوله، فهو في صعودٍ



دائم، ما دام ينهل من معين الثقافة الذي لا ينضب، بكل فروعها، بادئاً بأساسياتها وتراثها، ماراً بفروعها المتنوعة، منتهياً إلى الحاضر وما يدور فيه من تفاعلات ثقافية، يحتاج فيها إلى جواز مرور يكون مليئاً بتأثيرات الوعي العالي، والإيمان الواقعي، والهمة اللامتناهية، والقريحة المتجددة الإبداع، واللغة الخارقة لحصون العصر، التي تغلفت بجدران سميكة من الادعاء التقني المتفجر، محاولة تعميم ثقافة واحدة بعينها، لتكون سيدة الجميع، تحت مسمى يبدو في ظاهره محبباً، لكنه مبطن من الداخل بسموم الهيمنة، واستلاب كل الداخلين إلى محاضنها، وتحويلهم إلى سدة يخدمون رفاه شعوب أسياذ «العولمة».

ولا بد لهذا البرعم الموهبي المؤمن من حيازة التحلي ببراءة متمردة على ثقافة الاستسلام، التي راحت تغزو أسواقنا الثقافية، وذلك من أجل أن يكون صوتاً يقاتل لإيقاف عملية تقديم الشهداء لمحكمة الإرهاب، ناطقاً رسمياً باسم خصوصية الهوية، وتميز هذه الأمة بكتابها الكريم الموسوم بآيات الله البينات، التي تفيض بالحرص على الإنسان من خلال بيان بلاغي معجز، حق لكل برعم

أن ينطلق مع التعرف عليه ابتداءً، تعرفاً إيمانياً عقدياً أولاً، ثم ليسوح في معجزاته البلاغية البيانية التي لا تنقضي عجائبها، ولا ينتهي تجدد معانيها، وتلاؤ ألفاظها وحروفها الفذة؛ حيث من هذه النقطة بالذات تبدأ حركة تطور البرعم، حركة واعية مبصرة، شامخة التطلعات، موفقة الخطوات، راسخة في العلم والفهم والتعبير، قابلة راضية، معتزة بالمنة العظمى التي امتنها الله على الإنسان إذ قال: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

٢ - آفاق الاطلاع:

إنما صنَّع الكلام لإفادة المعاني، والبلاغة فيه أن تبلغ به ما تريد من نفس المخاطب من إقناع وترغيب وترهيب وتشويق وتعجيب أو إدخال سرور أو حزن أو غير ذلك.. فالبلاغة ملكة روحية وأريحية نفسية، وليست صناعةً لفظيةً محضةً، فلا بد من الاهتمام إلى أسباب تجعل الكلام مؤثراً^(١).

(١) هذا الكلام من مقدمة كتاب: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٧، ط ٢، دار المعرفة - بيروت.

وبناءً على هذا نستطيع القول: إنّ الكلمة تاريخٌ ولغةٌ وفقّةٌ وقانونٌ وعلمٌ، وخبرةٌ إنسانيةٌ، وتجربةٌ حياتيةٌ، وحالةٌ نفسيةٌ ذاتُ معانٍ عميقةٍ، وعاطفةٌ جياشةٌ ممتزجةٌ بلفظٍ معبّرٍ، وفلسفةٌ نازعةٌ إلى بناء الحياة على أسس فكريةٍ، وإرادةٌ جماعيةٌ.. فمتى كانت الكلمةُ المزجاجةُ جامدةً ميتةً غيرَ ناطقةٍ بكلِّ هذا الذي ذكرناه، أصبحت غيرَ ذاتِ قيمةٍ أو جدوى كما ذكر الرافعي^(١).

ولقد نُقِلَ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كلاماً داعماً لما أوردناه، واصفةً به كلام رسول الله ﷺ وبيانه، فقالت: «ما كان رسولُ الله ﷺ يَشْرُدُ كسرِدِكُمْ هذا، ولكن كان يتكلّمُ بكلامٍ بَيِّنٍ فصلٍ، يحفظُهُ مَنْ جَلَسَ إليه»..

وهذا يعني: أنّ كلام رسول الله ﷺ كانَ في القمّةِ من البيان، «بَيِّنَ فصلٍ» فيه النفعُ والفائدةُ، والحلولُ والخبرات، والتاريخُ المفيد، والعلاجُ الناجع، والفهم الواضح النير المبصر، المخترق لحصون المعتدين الظالمين، السالك بليّنٍ وقوةٍ قلوبَ المؤمنين، البَيِّن، المداوي الهادي، المتعامل مع حياة الناس بما يرقّيها، ويرفع تطلّعاتها.

(١) إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي، ص ٢٠.

من كلّ ما تقدّم نستطيع تحديد مجالات الاطلاع، وعناصر الثقافة المطلوب من صاحب الموهبة حيازتها، إن أراد تنمية موهبته والارتفاع بها:

أ - العيش مع القرآن الكريم:

وتمثل تعاليمه، والتعرّف على علومه، والدخول إلى معالم بيانه وبلاغته وإعجازه الذي يخترق الزمان والمكان. فالقرآن الكريم هو المدرسة الأولى والأساسية لكلّ الشادين المبتغيين ركوب صهوات البيان، الكاتبين بلغة الضاد، المتعاملين مع شعوب العرب والإسلام، المقبلين على اختراق جدران الثقافات المحصنة بالعناد والظلم للنفس وللغير..

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

* قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧ - ٢٨].

والقرآن الكريم هو تاريخ وأساس، وامتداد ثقافة، وبيان لغتنا وأمتنا، وهو الذي يقوم أداءها على الوجه الذي نطق به أصحابها الأوائل، ويسر ذلك لأهلها في كل عصر، ولولا

هذا الكتاب الكريم لما وُجِدَ على الأرض أسود ولا أحمر يعرف اليوم ولا قبل اليوم كيف كانت تنطقُ العرب بألستها، وكيف تُقَيِّمُ أحرفها، وتحقِّق مخارجها، وهذا أمرٌ يكون في ذهابه ذهابُ البيان العربي جملة أو عامته^(١).

ب - أن تتفتَّح البراعمُ من نسغ السُّنَّة وبيان رسول الله ﷺ: فهو امتدادُ بيان السماء فوق الأرض، وفعلُ تعاليم رب العالمين متمثلةً بحركة بشرٍ نبيٍّ، يعيشُ بين الناس، يؤاكلهم ويشاربهم، يدعوهم، ويجاهد بنفسه وبهم، ويتقلب معهم ويرعى شؤونهم، يحلوها ومزها، نصرها وتراجعها.. فهو البيانُ العمليُّ الفدُّ للإسلام في هذه الأرض ومع الناس، وهو الأساس الثاني بعد القرآن في البناء الثقافي، وتنمية موهبة الموهوبين بصورة صحيحة سليمة.

وقد وصف الرافعي بيانَ رسول الله ﷺ بكلامٍ جميلٍ؛ إذ قال: «هذه البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكارُ لآيتها، وحسرت العقولُ دون غايتها، لم تصنع، وهي من الأحكام كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها، وهي على السهولة بعيدة ممنوعة»^(٢).

(١) إعجاز القرآن، ص ٨١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٩.

وإذن فالعيشُ في ظلال هذا البيان، والتعامل معه أساسُ ركينٍ من أسس ثقافة صاحب الموهبة.

جـ - الأخذ من كلِّ علمٍ وفنٍّ بطرف:

بيّن ابن قتيبة في مقدمة كتابه (أدب الكاتب) ما يحتاجه الذي يشدو موهبة الكتابة من أدواتٍ وسعةٍ اطلاعٍ بما يلي:

- أن يشدو شيئاً من الإعراب.

- أن يتعرّف على شيء من علم الهندسة والرياضيات.

- لا بدّ له من النظر في جُمَلٍ من الفقه.

- كما لا بدّ له من معرفة أخبار الناس، ومعرفة أحوالهم وأقدارهم وأوضاعهم، وما يصلحُ لهم أن يخاطبوا به (أي: أن يعرف شيئاً عن الفلسفة، والاجتماع، والنفس، والأدب الخاص والعام).

- الاطلاعُ على الكتب التي وضعها ابن قتيبة من أجل من يريدون دخول معترك التبليغ عن طريق الكتابة، وهي كتبٌ خفاف، يشتملُ كلٌّ منها على فن من الفنون والعلوم كما قال ابن قتيبة.

وأضيف في هذا الباب ما يفيد صاحب الموهبة لكي يحقق تنمية موهبته وذلك بأن يكون مطلعاً على:

- ثقافات الشعوب الأخرى وآدابها وفلسفاتها.

- على أسس ورئيسات التقنيات المعاصرة.

- على تراث أمته في مختلف الفنون.

- على تاريخ أمته والأمم الأخرى.

وحتى لا نكثِر على صاحب الموهبة، ونطيل عليه بقوائم طويلة عريضة، قد توقعه بالإحباط، فإننا نقول: ليس المطلوب من صاحب الموهبة أن يكون عالماً ضليعاً بكل ما ذكرناه، بل المطلوب أن يكون لديه اطلاع وإلمام عام، وفهم عام، وصورة عامة عن كل ما ورد، بحيث يستطيع استعماله في خطابه البلاغي الإبداعي، بشكل يجعل لخطابه قوة وقدرة على الاختراق، خصوصاً في عصرنا الحاضر، الذي اتكأ على كم هائل من الثقافات الزائفة، والتقنيات الفتاكة.

«بما أن الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها، ويبين مراتبها، ويكشف عن صورها، ويجني صنوف ثمرها، ويدل

على سرائرها، ويبرزُ مكنونَ ضمائرِها وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان»^(١) فإنَّ صاحب الكلام الذي يمتلك أكبرَ مخزونٍ ثقافيٍّ في ذاكرته، ويحسِّنُ استعمالَ هذا المخزون في كلماته، يستفيدُ أيما فائدةٍ من ذلك كله في رفعة قلمه، وبلاغةِ إبلاغه، وإعطاء التراث حياةً جديدةً مناسبةً للعصر.

٣ - الحصن الحصين والمرجعية القويمة:

لقد كان القرآن الكريم وثقافة القرآن الكريم والسُّنة النبوية المرجعين القويمين الثابتين لكل الشداقِ في باب الكتابة، وذلك إذا أرادوا لشخصيتهم أن لا تتماهى في شخصيات الآخرين وثقافتهم وحضاراتهم، وقد شكَّل الاعتمادُ المعاصر على ثقافات الآخرين، والرضوخُ للأبعاد المعنوية لمنتجاتهم المادية والحضارية والفكرية، إضافةً إلى الجهل التام أو الجزئي بثقافة المرجعيات والحصون الأساسية للأمة، أقول: شكل ذلك ارتداداً كارثياً في موقف ومكانة أمتنا، مما جرَّ إلى هذه الأوضاع المزرية التي تعيشها الأمة؛ من تخلفٍ وضعفٍ وذيلية.

(١) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص ٣.



ولقد كان من نتائج الجهل بالمرجعية القرآنية والسُّنة النبوية، أن كرس أهل هذا الجهل مجهوداتهم الكبرى للهجوم على اللغة العربية؛ الأداة العظيمة لثقافة المرجعية الحصينة، فقامت دعواتٌ تجحد فصاحة هذه اللغة وبلاغة مرجعياتها، وتسعى إلى تفجير هذه اللغة بالأساليب المتمنقة بقنابل الحداثة الزائفة، ونبد أساليب الأجداد، والانقطاع عنها نهائياً.

بل إنَّ البعض دعا إلى ترك الفصحى، والخوض في غمار العامية والفوضى، وذلك من أجل قطع الوصل بين الحاضر والماضي، ليأتي المستقبل تافهاً ضائعاً.

ووصل الأمر بالبعض أن تجزأ على الدعوة لهجر الحرف العربي، والكتابة بالحرف اللاتيني كما فعل «أتاتورك» في تركيا، الذي اتخذ الحرف اللاتيني بدلاً من الحرف العربي لكتابة اللغة التركية.

لذا فإنَّ ناشئة الكتاب من الموهوبين المؤمنين مثقلون بالمهام العظام، التي يتمثل أهمها وأعظمها بإعادة الرونق والجلاء للاعتماد على المرجعية القرآنية والسُّنة النبوية القويمة، تلك الإعادة التي راحت تأخذ مكانها في مقدمة البناء الثقافي لمجتمعات الأمة العصرية، على يد العديد من عمالقة الثقافة

الإسلامية العربية المعاصرة.. ولكن الطريق لاحقٌ وطويل، ويحتاجُ إلى تنابع الأجيال، وتراكم الخبرات، وعمق الانتماء، ولمزيد من الأسماء المليئة بالنماء والتطور والمعاصرة والمعبرة بالمرجعية الأصيلة المتصلة القويمة الحصينة^(١).

* * *

البند الرابع

المران والتجريب وتهذيب اللسان

تعيّنتِ الموهبةُ، وأينعت بوادُرُها، وهبت على النفس الكاتبة محاولات التجربة، واستيقظت القريحةُ، وحانت لحظة القطاف، ودخل الوقت؛ وقتُ الجِدِّ، وامتلات قِداحُ الفكر، وأزهر الليمونُ في حقول الموهبة، وراحت الهمةُ تراوِدُ القلم، ليسطر أول الكلمات، لكن ساقية الجميع ما تزالُ بطيئةَ العطاء، شحيحةَ الوزد، تتدفقُ حيناً، وتنزُّ نَزْلاً أحياناً كثيرة، وأنت.. أنت يا صاحب الموهبة تنتظرُ خوض اللجة على أحرّ من الجمر.. تريدُ أن تذهب في بحر الكتابة أبعدَ شوط، مغامراً بالبدايات، من أجل الوصول العاجل، ظناً

(١) انظر: فصل: الجملة القرآنية، للرافعي، في كتابه: تحت راية القرآن، وتعقيب الأمير شكيب أرسلان عليها بعنوان: ما وراء الأكمة. (ن).

منك أَنَّ الحِلْمَ ذو جناحينِ شديدي المراس، وبهذا يسَلِّمك
التعجلُ لقطف البراعم قبل تفتُّح أزهارها، وقبل وضع القدم
الأولى مَرَاتٍ ومَرَاتٍ، تجسُّ الديار، وتختبِرُ التربة، هل هي
طريةٌ تنزلقُ فوقها بدون أنيس؟ أم هي صلبة متماسكة مختبرة
مترابطة مجربة، لا تخاطر اليدُ بالرسم فوقها، ما دام الممدادُ
يزرغُ الثقةَ في أرجاء الساقية ذات النبع المدرار.

إنَّكَ إن فعلتَ ذلك، تكونُ قد خُضتَ التجربة نائياً بنفسك
وقلمك عن امتلاك نواصي الأقلام والفكر والأساليب
والصياغات، وبالتالي قادماً تقاتل في ساحات لم تختبر
بنفسك وعورةً مسالكها، وتلَوْن فنونها، ولم تستعرض جهودك
بصورة مبدئية مع مَنْ سبقك، ومع مَنْ هو ناصحك وموجهك،
وبكلمة مختصرة لم تبدأ البداية السليمة التي تقتضي منك لكي
تنجحَ أن تسيرَ الخطواتِ مثقلاً بدايةً بسؤال طويل عريض، قد
طرح عليك مَرَاتٍ ومَرَاتٍ، لكنه الآن بعد أن تعينتِ الموهبةُ،
ووهبتَ رغائبَ خوض التجربة، يلحُ في الطرح ليقول:

١ - عضواً ما الذي تهدف إليه تماماً؟:

وها أنتَ تجدُ نفسك أمام الصدى يتردّد في جنبات
نفسك، وفي عميق فؤادك المؤمن ليؤكد:

- أنك وجدت امتلاك ناصية الكلمة واستخدامها أهم وسيلة من وسائل البلاغ الرسالي..

- وأنت تريد أن تضيف صوتاً بلاغياً جديداً متميزاً يتنصر للمعنى البلاغي الإيماني..

- وأنت بهذا تعمل في المجال المناسب الميسر لما خلقت له.
- وأنت جادٌ في خوض معركة الذود عن حياض الحق بالكلمة العليا، وذلك لكبح جماح الباطل، وكسب الساحة لإنقاذ الإنسان من كلّ التزوير الذي يطلّ عليه من بوابات الاتصال المختلفة ليل نهار.

- وأنت مستعدٌ لدفع الثمن الذي يترتبُ على خوضك التجربة، وقد يكون ثمناً باهظاً في الكثير من الأحيان.

فإذا أنت أيها الموهوب سمعتَ كلّ ذلك الصدى يتردّد، ووقفت على الأهداف، وعرفتَ ماذا تريد، وفي أي الاتجاهات تسير.. انطلق سؤال آخر يقول لك:

٢ - كيف تصنع في البدايات؟

لتجد نفسك أمام بوابتين؛ إحداها مباشرة، والثانية تأتي فيما بعد....



فأما البوابة المباشرة فتحْتَاجُ إلى:

أ - محض المعاناة:

لَمَّا كَانَتِ الْكِتَابَةُ الصَّادِقَةُ الْمُؤَمَّنَةُ نَاتِجَةً بِصُورَةٍ أَكِيدَةٍ
عَنِ الْمَعَانَاةِ الَّتِي يُوَاجِهُهَا الْكَاتِبُ، وَيَحْسُنُ بِهَا تَتَفَاعَلُ فِي
دَوَاحِلِهِ، مُقَابِلَ مَا يَرَى وَمَا يَقْرَأُ وَمَا يَسْمَعُ، وَمَا يَعَامَلُ بِهِ
مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ يَحِيطُونَ بِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَعَانَاةَ هِيَ الَّتِي تُولِّدُ
الْفِكْرَةَ، وَتَفْتَحُ أَبْوَابَ الْقَرِيحَةِ لَدَى صَاحِبِ الْمَوْهَبَةِ، وَمَنْ
هُنَا فَإِنَّ عَلَيْهِ مَبَاشَرَةً أَنْ يَتَنَاوَلَ الْقَلَمَ وَالْقُرْطَاسَ، وَيَسْجِلُ
الْفِكْرَةَ الْمُتَوَلِّدَةَ، وَمُحَاوِرَ مُعَالَجَتِهَا، قَبْلَ أَنْ تَغِيبَ فِي طَيَاتِ
الْمَشَاغِلِ الْيَوْمِيَّةِ، فَيَبْحَثُ عَنْهَا فَلَا يَجِدُ مِنْهَا إِلَّا أَطْلَالاً بَاهِتَةً
غَيْرَ مُكْتَمَلَةٍ التَّكْوِينِ.

وَالْمَبْدَعُ فِي الْكِتَابَةِ، الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تُسْمَعَ أَفْكَارُهُ،
وَيُؤْخَذَ بِنَتِيجَةِ مُعَالَجَاتِهِ لِمَعَانَاتِهِ، هُوَ ذَلِكَ الْكَاتِبُ الَّذِي
يَخْتَارُ لِكُلِّ مَوْضُوعٍ مِنْ مَوْضُوعَاتِهِ الْمُسْتَجَدَّةِ مِنَ الْمُعَالَجَاتِ
وَالْأَسْلُوبِ وَالْأَفْكَارِ، بِمَا يَثِيرُ الْإِتْبَاهَ، وَيَصْنَعُ إِضَافَةً
جَدِيدَةً، تَسْتَحِقُّ عَنَاءَ الْإِطْلَاعِ وَالْقِرَاءَةِ وَصَرْفَ الْوَقْتِ،
بَلْ وَتَنْشِئُ حَوَاراً وَأَخْذاً وَرَدّاً وَاهْتِمَاماً وَإِثَارَةً إيجابيةً يَنْتِجُ

عنها مزيد من التسويق والانتشار وتركيز الزمان والمكان، والاعتراف الراسخ، ويكون ذلك كله بعد الكثير من تقلب الفكر بالمعاناة، وفحص تشكّلها، وعناصر تكونها في نفسه، ومظاهر تقلبها في خارجه والمحيط، ومدى قوة تأثيرها، وصمود حجتها، والاستجابة لها سلبياً أو إيجابياً، وأسباب ذلك كله.. ومن ثمّ يأتي دور:

ب - التجريب والتمرين:

وهما يبدأان بارتياح الأرض عن طريق المزاولة المغلقة أولاً (أي: غير المنشورة) وهذه المهمة تحتاج إلى مخالطة المجرّبين، ومحاولة محاكاتهم، واستشارتهم في كل البادرات الكتابية.. ثم الإعادة والتصويب والتركيز.. حتى إذا لاقت بعضُ البادرات استحساناً وقبولاً وثناءً، دفع بالبادرة إلى الأمام نحو النشر، ثم الواحدة تلو الأخرى، حتى تبلغ مبلغ رسوخ القدم.

وقد تستمرّ هذه الحالة زمناً ليس قصيراً، فلا يئس صاحبُ الموهبة ولا يكلّ، ولا يتراجع.. فكل مريدٍ يحتاجُ إلى من يسهّل له الطريق، ويشدّب السلوك، ويرقّق اللسان والقلب..

وهذا رسولُ الله ﷺ يقول له أبو بكر رضي الله عنه: لقد طفئتُ في العرب، وسمعتُ فصحاءهم، فما سمعتُ أفصحَ منك، فمن أدبكَ (أي علمك؟) قال ﷺ: «أدبني ربي فأحسنَ تأديبي».

ولتعلم أخي المقبل على الكتابة أنك مقبلٌ على فنٍّ وعلمٍ عظيمين كريمين عاليين في الغاية والوسيلة، وذلك لأنك في إقبالك هذا حاملٌ همَّ الإِبلاغِ الرسالي السامق، وقد قيل في ذلك: «إنَّكَ لا ترى علماً هو أرسخُ أصلاً، وأبقى فرعاً، وأحلى جنى، وأعذبَ ورداً، وأكرمَ نتاجاً، وأنورَ سراجاً من علم البيان، الذي لولاه لم ترَ لساناً يحوك الوشي، ويصوغُ الخلي، ويلفظ الدرر، وينث السحر، ويقرى الشهد.. والذي لولا تحقُّقه بالعلوم، وعنايته بها، وتصوره إياها، لبقيت مستورةً، واستولى الخفاء على جملتها».. وفي ذلك ما فيه من ضياع الحق، وخفوت صوته، وانتشار الجهل، وعلو مكانته.

وأما البوابة الثانية التي تأتي فيما بعدُ فهي:

ج - النزول إلى الساحة:

وفي هذه المرحلة يكونُ صاحبُ الموهبة قد غدا داخلَ المهنة، وفي طلب المهمة الغالية، وهو في هذا محتاجٌ

لأن تكون خطواته متجهةً إلى الأمام دائماً.. فيتوقّى الهناتِ، والنزولَ والخذلانَ، وهو في ذلك - وإن كان لا يمكنه بلوغُ مقام رسول الله ﷺ البياني - حسبهُ إذ بلغَ مرحلة المهنة الاقتداء في بيانه ﷺ ما وسعهُ الاقتداء؛ فيتزهِ قدر الإمكان عما يعترِي أصحاب القلم واللسان من العيوب التي تنزه عنها رسول الله ﷺ؛ إذ قال صاحب (إعجاز القرآن) في ذلك: «لا يعترِي رسول الله ﷺ ما يعترِي البلغاء في وجوه الخطاب، وفنون الأقاويل؛ من التخاذل، وتراجع الطبع، وتفاوت ما بين العبارة والعبارة، والتكثُر لمعنى بما ليس فيه، والتحيف لمعنى آخر بالنقص منه، والعلو في موضع، والنزول في موضع..»^(١).

وأول ما يتبادر إلى الذهن لتقديمه نصيحةً لكلّ من يتقدّم من الكتّاب المؤمنين إلى الساحة لينزلَ فيها هو أن يكون متمكناً واثقاً من انطلاقه من خلال عقيدة راسخة تقول:

إنّ الحقيقة الكلية لهذا الكون ولهذا الإنسان ولهذه الحياة ومآلها جميعاً ومصائرُها إنّما هو معروفٌ وثابتٌ ومثبتٌ فيما

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٢٨٦.



نزل على قلب رسولنا الكريم ﷺ من آيات الله، وما جرى على لسانه من وحي يوحى، وهو (أي: الكاتب) غير محتاج للتجربة داخل نفسه أو داخل غيره، أو فيما يحيط به ليجد الأجوبة الكبرى على تلك الحقائق الإيمانية الكبرى.

إذ إن الكثيرين من كتاب الغرب وأدبائه وفنانيه ومن نهج نهجهم داخل أمتنا تاهوا وضاعوا في الجري لاكتشاف الحقيقة، فحوّلوها إلى محاولات تدميرية للغة، وللتراث، وللقيم، ولكل معنى إيماني، على اعتبار أن هذا الذي يخوضونه إنما يمثل ثورة على واقع وتاريخ وقيم قومية وسلطوية وغير سلطوية، وهو ما جعل هؤلاء أعضاء خارجين على مجتمعاتهم، منسحبين منها، راكضين خلف أمزجة وأهواء فردية مهزومة داخلياً وخارجياً، مريضة بمجموعة من الأفكار الفردية النزعة، النرجسية الرؤى والعمل، عدوة لمنطق التغيير والتطوير المنسجمين مع طبائع الأشياء، وسيرورة التاريخ، والمحكومين بالثواب والمتغيرات، ولسوف نتطرق في الفقرات القادمة إن شاء الله إلى كيفية السير قدماً إلى الأمام دون تعثر.





الفصل الرابع

السير قدماً:

التأكيد المُلحُّ على العقيدة والسلوك

١ - لماذا التأکید؟

ليست الكتابة عبثاً من العبث، ولا هي نزوة نفس تائهة، تخطُّ باليد ما لا تعرف عاقبته ولا موقعه من الناس ومن الأخلاق والمآل والأثر.

إنَّها أمانةٌ وعنوانٌ:

- أما كونها أمانة، فلأنها كسائر المواهب التي منحها الله لهذا الإنسان، بل تزيدُ عليها، كونها ممتدة التأثير والتحكم بالناس وأخلاقهم وعاداتهم وعلاقاتهم، وهي بهذا المعنى والأثر أمانةٌ عهدَ الله بها لبعض الناس، يجب حفظها، وحسن التعامل معها، وربطها بالدين والسلوك السوي والتقوى والعقيدة السليمة.

- وأما كونها عنواناً، فهي مفتونة بالعقل والتدبر، وبوابة للفكر النير، تخرجُ من قلب نازف بالتجربة والخبرة والمعاناة البريئة، لترتطم بالقرطاس ذوباً لطرف قلم أقضته مضاجعُ الغفلة، وكظمت غيظَ عواطفه كلماتُ الله وتعاليمه، فهي كما قال زياد: «ما قرأتُ كتاباً قطُّ لرجلٍ إلا عرفتُ مقدارَ عقله فيه».

أو كما قال طُريح بن إسماعيل: «عقول الرجال في أطراف أعلامها».

أو كما وجّه يزيد بن المهلب ابنه حين استخلفه على خراسان فقال له: «إذا كتبت كتاباً فأكثر النظر فيه، فإنما هو عقلك تضع عليه طابعك»^(١).

وفي قول الله تعالى: «وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» [البقرة: ٧٩] مندوحة عما سواه في إثبات أن الكتابة أمانة، وأن الكاتب رقيب نفسه، وحسيبها على ما يخطئ يراعه؛ لأنّ الويل ينتظره إن لم يؤدّ الأمانة، كما علّمه الله إياها، ولذلك أردتُ في هذه السطور أن أعود لأؤكد على امتلاك العقيدة السليمة لعقل ويراع الكاتب، التي تتحكّم بسلوكه، وتوجّه موهبته، وتبني خبرته، وتصنع خياله وعبقريته، ليصبح إذا خطّ بيده فكره كما وصفه ابن المعتز في شعره:

إذا أخذ القرطاس خِلْتَ يمينه

تَفْتَحُ نُوراً^(٢) أو تَنْظُمُ جَوْهَراً

(١) من كتاب: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ص ١٠٠.

(٢) النُّور: الزهر.

محاولات لاكتشاف الحقيقة بعيداً عن العقيدة،

قال ابن الجوزي في كتابه (صيد الخاطر): «إن التكليف هو الذي عجزت عنه الجبال، ومن جملته أنني إذا رأيتُ القدر يجري بما لا يفهمه العقل، ألزمتُ العقلَ الإذعانَ للمقدّر، فكان من أصعبِ التكاليف، وخصوصاً فيما لا يعلم العقل معناه؛ كيلاّلام الأطفال، وذبح الحيوان، مع الاعتقاد بأنَّ المقدّرَ لذلك والأمرَ به: أرحم الراحمين»^(١).

إنّها خلاصةٌ عقيدة، العود فيها إلى ما قاله الله وقدره، وإلى ما نزل به الوحي وشرحه، وبيّنه رسولُ الله ﷺ، والحقيقة فيها تكون مرجعيّتها قواطع وثوابت العقيدة، وليس الهوى والنزوة، أو العقل الذي نشأ وتربى ونما في حضن الوهم، وأوهام النفس المريضة البعيدة عن الله.

إنّ الحقيقة كل الحقيقة تجدها في راسخات كلمات الله المحكمات، وفي بيان رسوله ﷺ القطعي المحكم، وفيما أجمع عليه المؤمنون في كل عصر ومصر، فلا تجري في البحث عن الحقيقة جري مَنْ أعشته كلمات تقال، ويرادُ بها

(١) صيد الخاطر، تحقيق: حسن السماحي سويدان، ط. دار القلم بدمشق، ص ٥١.

الخداع؛ مثل قولهم: إِنَّهُ لَا أَحَدَ يَمْتَلِكُ الْحَقِيقَةَ! فهذا كلامٌ مختالٍ فاسدٍ الطوية، عقيم الفهم والإدراك، ويرادُّ به إخراجك أيها المؤمن من دائرة الاطمئنان والراحة النفسية إلى دوائر التيه، حيث لا تصل بعدها إلى أيِّ يقينٍ، وتمتلئ نفسك بشتى الأمراض، وتمتلك أمرك دواخلٌ متفتحة متعفنة، غافية في طين لا ترفع عيناً عن جسد، ولا ترنو إلا من نافذة خيال، لا يغادرُ النزوات، ولا يفهم الواقع أو يرد عليه إلا من خلال رذاتٍ فعلٍ كتابية، وعلمانية سلبية مبحرة في تلك الدواخل التي شرحنا حالها، وهو ما أراد أصحاب القول بعدم امتلاك أحدٍ للحقيقة أن يصلوا إليه فوق رواحل من بناء فنِّ كتابي، جعلوه حركةً حملت - كما قال أحدُ الناقدين - : «الآثار المدمرة للواقع» في جريها خلف المثاليات النظرية الفلسفية، التي بُنيت على مرجعيات تائهة في ضباب العقل البشري، القاصر عن إدراك سرِّ (كيف؟ ولماذا؟) في كثير مما يدور حوله.

لذا يجب تنبيه الكاتب المؤمن إلى هذا المعنى الخطر، كي يحمي نفسه بالاطمئنان إلى الحقيقة المركوزة في عقيدته، كما وجب التأكيد على ذلك أكثر من مرة، من أجل تنبيه وعيه بمهمتين موكولتين إليه في هذا الخضم، ينميهما بالمران والتجربة:



أولاهما: سيرُهُ دائماً إلى الأمام.

وثانيهما: تعلُّقُ بصرِهِ وخياله بخدمة الإنسان الحثيثة في مهنته.

٣ - الانتفاشُ الباطلُ

ويتنفَّشُ الباطلُ، ويفرُدُ ريشه، وذلك من أجل إحباط الحق الذي تحمله أيها الكاتب المؤمن، فلا يغرنك تقلُّبه في البلاد، ولا يوهنُ عزيمتك أنك ترى وتسمع وتشاهد حفلات «الزار»، تقام في شتَّى الأرجاء، من أجل تكريم الشذوذ والاعوجاج، في محاولات لحرفِ مجرى نهرِ الحقِّ، وجعله معزولاً عن التيار.

ويتجلَّى هذا الانتفاشُ بصور شتى منها:

أ - الصخب الإعلامي، الذي يثار حول هذا الكاتب أو تلك الشخصية، بحيث ينقلب الفنُّ إلى صفقاتٍ تديرها عقولٌ وأيدٍ مشبوهةٌ، تبتغي الترويج لمن يقدم الخدمة الأكبر لأصحاب اتجاهات الهيمنة، واستغلال الإنسان عامةً لغايات أنانية فردية، أو للون معين من البشر.

ب - الدعمُ والحمايةُ المباشرةُ لمن يخدم بقلمه فكرَ الهيمنة، ويروجُ له ولصوره العملية الحياتية الباطلة، وذلك عن طريق دعم وتسهيل سبل الانتشار، ودعم وتسهيل وسائل الاختراق للمجتمعات، من أجل قيادتها نحو الالتزام بالباطل بعد بروز صورته المنتفشة.

ج - جواز المرور المفتوح إلى كلِّ المناصب القيادية والثقافية، وإلى الهيمنة على معظم وسائل الإعلام الفعالة، بحيث يصبح الباطل من خلال هذه الترتيبات طعام الناس وشرابهم، الذي يشاهدونه ويسمعونه ويقرؤونه ليلَ نهارٍ، ليحاط بهم من كل الاتجاهات، فلا يرون إلا ما يرى أهل الباطل المتنفش على طريقة فرعون الموصوفة في القرآن الكريم: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا آَرَأَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]..

وبهذا يتيه السلوك العام وينحدر، وتلهث السرائر والعلانيات البشرية خلف السراب المقروء والمسموع والمرئي، المبتغي تدمير هذا الإنسان، وجعله ترساً يدور لخدمة الآلة الصماء الكبرى، التي تاهت هي الأخرى خلف شهوة الحياة والرفاهية غير المتوازنتين، وغير المدركتين لمعنى الوجود الإنساني الحق في هذا الكون.

تهافت ما يُكْتَبُ بعيداً عن القضية:

مضت عقود طويلة منذ انطلاق هرطقات كتاب (في الشعر الجاهلي)، و(مستقبل الثقافة في مصر) لطف حسين، ومروراً بـ(بالإسلام وأصول الحكم) لعلي عبد الرازق، وترتيبات سلامة موسى، وتخرصات لويس عوض، و(تحرير المرأة) لقاسم أمين، وانتهاءً بديكتاتوريات العلمانيين واليساريين، ومحاولات إقصائهم الإسلام، وتصفية كل من ينادي به مرجعاً كاملاً صالحاً شاملاً لكل مجالات الحياة.

ثم محاولاتهم اليائسة لدس السم في قراءات الناس ومشاهداتهم عن طريق الإبداع الأدبي الموبوء بالخنا والاعتداء على المقدسات والمسلّمات الإسلامية، والترويج لكل ذلك خدمةً للفكر التدميري، الذي يتبغي إقصاء أمتنا وتهميشها..

غير أن كل هذا الغناء المتهافت من الفكر والسلطوية، وما يزعم أنه «أدب»! لم يستطع أن يغيّر مسار الإسلام في تأثيره على مجتمعات المسلمين، واحتضان المسلمين له بعقولهم وقلوبهم وعواطفهم، وفي كثير من تحركاتهم اليومية.. وذلك رغم ما قدّم له من دعم مالي وإمداد إعلامي، وترويج

سوقي، وتسهيلاتٍ مروّيةٍ إلى سطح الحدث، وأخيراً ما قدّم له من احتضانٍ سلطوي، سخر في خدمة القمع والفردية.

فهل لذلك الإخفاق من سبب؟..

نعم.. فإنّ الانطلاق في الكتابة بعيداً عن المعرفة الربانية الحقة والعقيدة الإسلامية الربانية ومصدرها الأول والأساسي، يوشك أن يقود هؤلاء الناس إلى البوار والخبال في ميادين الحياة، ممّا يجعلهم يتخبّطون ويهيمون على وجوههم جرياً خلف الأجوبة الضالّة الحيرى على الأسئلة الكبرى، التي تواجه الإنسان عن حياته، وما يعترئها من مفارقات وملابسات وتقلبات، وعن مصيره ومآله، وما يعنيه هذا المرور القصير به في الدنيا.. وباختصار: عن موته وحياته، مرضه وصحته، فقره وغناه، وصعود الأمم وزوالها.. إلى آخر ما هنالك من أسئلة لن تجد لها جواباً حقّاً إلا إذا رسخت عقيدة الإسلام السهلة البسيطة في صدرك وقلبك، وانطلق فيها عقلك وقلّمك.. لأنّ الفلاسفة والمفكرين العقلانيين الذين أعملوا عقولهم، وأنهكوا فكرهم بحثاً وتقليباً لوجهات النظر في الأمور التي ذكرناها جميعاً بدون الهداية الربانية، لم يكتب واحدٌ منهم جواباً يسدّ جوعَةَ الناس لمعرفة الأجوبة السديدة..

واستمرّت الحيرةُ والظلمةُ تسدُّ أفقَ جميع البعيدين عن المعرفة الربانية، وظل المسلم المؤمن وحده - كاتباً كان أم أُمياً - هو صاحب الطمأنينة والراحة النفسية المتولّدة عن الإجابات الشافية المهيّدية الصادرة عن كتاب الله ينبوع المعرفة وأصلها..

ورغم أن ورثة الركام الفكري والمعرفي غير المستمد من ينبوع وصولون ويجولون اليوم بالمعارف المادية العلمية والتقنية، فإنهم في الحقيقة يقفون مذهولين أمام الاطمئنان اللامحدود الذي يتربّع داخل حياة المؤمنين، رغم قصورهم التقني، ذلك لأن إجاباتهم السريعة والواثقة عن كلّ الأسئلة المحيرة، تشدّه أولئك العابثين، وتبعث فيهم ردات فعل غير متعلّقة، بل خرقاء حمقاء متكبرة، تصدر عنها كتابات ذات صورة أصلية غائمة السحنة، تائهة المعالم، وصورة مقلدة تابعة.. فهي أشدّ تيهاً من الأصلية، وأعظم في الضياع منها..

ففي حين يقول رب العزة في محكم تنزيله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فيحدد هذا الكلام معنى الحياة والعالم وغايتيهما بأنهما مخلوقان لغاية عبادة الله

وتسبيحه وذكره وترقي وسائل ذلك كله ما امتد الزمن، تجد رجلاً مسلماً ذا شأن في الكتابة والفكر - مثل: أحمد أمين - يقلد الصورة المستوردة للمعرفة التائهة، ليسجل على نفسه في كتابه (فيض الخاطر) أفكاراً ممسوسة بالبعد عن الله^(١)، مثل: «لترى كيف تلعب الطبيعة بالإنسان لحفظ النوع»^(٢)، أو مثل: «وكل ما وضع من مبادئ أخلاقية، وقواعد قانونية، إنما دفعت إليه الطبيعة لخدمة هذه العناصر الثلاثة»^(٣) أو مثل تقريره أن العلم كله يعمل كوحدة من أجل غاية واحدة هي «تحسين النوع»^(٤).

فالتبيعة هي المحركة، والغاية تحسين النوع.. وأين إذن الأجوبة الشافية؟ لا شيء سوى الدوران في المكان ثم في الخيال، ولا يتسع المقام لأمثلة كثيرة من الكتابات العقيمة، التي لا تقود إلا إلى التردى بنوعية الإنسان، نتيجة لانحياز الكاتب إلى المصدر السقيم للمعرفة.. هذا والله أعلم.

* * *

(١) انظر: عصر ورجال، للأستاذ فتحي رضوان: ٢/ ٢٣٥. (ن).

(٢) فيض الخاطر، ص ٦٣، ط ٥، نشر مكتبة النهضة - مصر.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.



الفصل الخامس

خطوط الارتقاء

١ - لماذا؟ وإلى أين؟

إذا تداعَت الأكلة، وانتبه المغرضون، وألقاك التيار على شواطئ قاحلة، وسأقتك الأقدارُ إلى عيشِ أيامِ مزدحمةٍ بالعنت، وإلى خوضِ غمارِ ساحاتِ مغزوةٍ بكلِّ ما يزدري العقول من فكرٍ وكلامٍ وكتابةٍ وكتابٍ؛ فأنتَ مِنْ أيِّ جهةٍ نظرتَ وجدتَ عجباً، يرشُ النهاراتِ رماداً أغبر، ويهيلُ على الحقيقةِ الناصعةِ سيلاً من الخُلَكةِ والتضليل، يحاولُ التهامِ الشمسِ في رابعةِ النهار.

هناك ينبت في حقولِ موهبتك غصنٌ يهفو إلى ينبوع، وترتفع في جنباتك صيحات نهوض تبغى الارتقاء بالرد، وتعلو وجنتيك حمرة حمية في لون البدر، ونعومة الندى، ولفح الشمس، تطلبُ كلُّها ثأراً لو هج الحق، يحرق إملاق الغزو، ويدفنُ رمادَ الخُلَكةِ بساطع الحرف وزُواء الفكر.

أفلا ترى معي أيها الكاتب أن كلَّ هذه الغايات كافيةٌ لصنع جواب: لماذا الارتقاء؟.

لكنَّ سؤال (إلى أين؟) لا يدعك تستريحُ من الكدِّ، فهنا هي مستحقات النجاح تتمطى في أفق عينيك، تاليةٌ عليك سؤال أولوية النهوض قائلة: إنَّك تبدأ فجراً، وتكدِّس أحلاماً، وتكابدُ حرجَ الوقت، فهنا علمت إلى أين أنت ماضٍ في الارتقاء؟.. إذا علمتَ ذلك، وأيقنتَ أنَّ الخط الذي تسير فيه، يجب أن يكون صاعداً، ولكي يكون كذلك يجب أن تتجلَّى فيه عبقريةُ الإضافة الملموسة الواعية، لا المراوحة عند المشاركة العادية التقليدية في الحوار الراهن، عندئذٍ لا بدَّ أنكَ سوف تردُّد مع د. محمد مندور: «إنَّ العبقرية قدرةٌ إيجابية فعَّالة، وبغير الإيجابية لا تستطيع أن تعيشَ، وأن تثمرَ، وأمَّا الهروبُ أو التسكُّعُ فمن خصائص أشباه العبقرية لا العبقرية ذاتها»^(١).

وإذن فإنَّ الإضافة الإيجابية العبقرية، هي المطلوبة، وهي المفيدةُ في تحقيق المضي قدماً في الارتقاء، حتى يبلغَ قلبَ التأثير وذرى الرد على إملاق الغزو.

(١) النقد والنقاد المعاصرون، ص ٢٣٨.



٢ - كيف تستقل خط الصعود؟

ينطلق جسُّ الكاتب المؤمن من موقف محدّد تجاه كلّ ما حوله، وهذا الموقف مبنيٌّ على وعي كامل، مرجعيته ذاكرة تحتوي الماضي والحاضر، وتتطلّع إلى قادمٍ يستلهم رؤية الكاتب الإيمانية إلى الكون والإنسان والحياة.

وبناءً على ذلك، فإنّ خط الصعود يتطلّب من الكاتب أن يوفرّ لاطلاعه وثقافته ووعيه وموقفه المستلزمات التالية:

أ - التأصيل:

ولا نعني بالتأصيل هنا أن تلتزم بمحور المقلدين في المعركة الدائرة بين الحداثيين والمتبعين الحرفيين للتراث الماضي.. بل نعني به: استيعاب الماضي كلّه، واستحضاره جاهزاً لفائدة الحاضر والمستقبل في التنظير الكتابي والحركة الفعلية، وذلك مع التفريق بين:

١ - ما هو أصلٌ وأساسٌ يبيّن الموقف ويحدّد الاتجاه، وهو بالذات الإيمان الذي يكون الشخصية ورؤيتها وهدفها وحدود حركتها، ويترأس عملية الوعي الجمعي

والفردى بكاملها لدى الكاتب المؤمن، ويشكّل القضية الأولى والأخيرة في حياته، ونصوص هذا الأصل ثابتة لا مجال للحركة داخلها إلا للفهم والتمثل والتنفيذ... فهي بمثابة الرأس الموجه لكل حركة وسكنة، واستيعاب ذلك، والانطلاق منه أصل أصيل في حركة الكاتب المؤمن.

٢ - وما هو من نتاج العقل البشري؛ فقهاً كان أم أدباً، علماً كان أم عمراناً، وثقافةً كان أو فكراً وفلسفةً، وهو الأمر الثاني الذي يجب على الكاتب المؤمن أن يؤصل به مسيرته الفكرية أو الإبداعية أو الأسلوبية، من خلال عملية انتفاء وارتقاء وتوظيف إيجابي فعال لهذا التراث، بما يجعل الحياة متواصلةً متطورةً، والتاريخ سلس الانتقال، منفتح الآفاق، والآخرة متصلة بحركة الإنسان فوق الأرض، دون أي انقطاع.

والخلاصة: إن مستلزم التأصيل يفرض نفسه على الكاتب المؤمن من ناحيتين:

الأولى: وهي واجبة مفروضة تقتضيها أوليات الإيمان أصلاً، كما توجبها معرفة أصول الإيمان وحدوده وقواعده وأأسسه.

الثانية: تقتضيها طبيعة التركيب الثقافي والعلمي عند الكاتب، فهي تتطلب وجودَ عملية تواصل مع التراث تؤسس لعملية البناء، وذلك كي يقوم البناء الثقافي والفكري للكاتب متيناً راسخاً متواصلاً في أسلوبه وشكله، لا تشوّه عمارته قفزاتٌ تجعله متصدّعاً مليئاً بالمفارقات غير المفسرة، ولا المسوغة، ولا المفهومة أصلاً، أو تنقله إلى الإمعية أو الانبهارية اللتين تذييان الخصوصية، وتذهبان بالكاتب بعيداً عن محيطه وجمعه، ليصبح كمن يلقي خطابه في الفراغ الأصم.

وأكثر ما يعتمد في هذا التأصيل البنائي، ويكون أعظم تأثيراً، وأجمل تكويناً كتاب الله وحديث رسوله ﷺ، فهما أولى ما يتجه إليهما الكاتب المؤمن لصقل قلمه، وتفصيح لسانه، وتنوير عقله وفكره.

ثم يأتي بعدهما في هذا الشأن ديوان الشعر العربي والإسلامي، وكتابات ونتاج فصحاء العرب وكتّابهم على مدى العصور، فضلاً عن منتجات مفكريهم وفلاسفتهم الراشدين وعلمائهم الموزونين..

فَأَنْتَ إِنْ اِمْتَلَكْتَ نَوَاصِي تِلْكَ الْأَسْسِ، وَدَرَّبْتَ لِسَانَكَ وَقَلَمَكَ، وَثَقَفْتَ عَقْلَكَ وَفَكَرَكَ بِهَا.. ضَمَنْتَ لِنَفْسِكَ الْفَصَاحَةَ وَالْحِجَّةَ وَالْبَلَاغَةَ الَّتِي تَحْتَاجُهَا فِيمَا أَنْتَ قَادِمٌ عَلَيْهِ مِنْ مِهْنَةِ الدَّعْوَةِ الرِّسَالِيَةِ بِالْقَلَمِ، وَمَكَّنْتَ لِقَدَمِكَ فِي هَذَا الْمَضْمَارِ، فَإِنَّ أَخَوْفَ مَا يَخَافُ مِنْهُ دَاعِيَةُ الْقَلَمِ وَاللِّسَانِ ذَلِكَ الْقَصُورُ عَنْ إِیْصَالِ الْقَوْلِ الَّذِي تَسْبِيهِ ضَحَالَةٌ التَّأْصِيلِ الَّذِي ذَكَرْنَا، وَلَتَعْرِفَ قِيَمَةَ هَذَا الْأَمْرِ أَقْرَأَ مَعِيَ دَعَاءَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي * يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٥ - ٢٨].

أَوْ قَوْلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُرْجِعاً عَلَّةَ طَلَبِهِ شَدَّ أَزْرَهُ بِأَخِيهِ إِلَى ضَعْفِ فَصَاحَتِهِ: ﴿وَإِخِي هَكَرُوتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٤]..

وارجع إلى قول الشاعر أَيْحِيَّةَ بْنِ الْجَلَّاحِ:

وَالْقَوْلُ ذُو خَطَلٍ إِذَا

مَا لَمْ يَكُنْ لُبٌّ يُعِينُهُ^(١)

(١) البيان والتبيين: ٩/١، دار الكتب العلمية - بيروت.

ولتَعظ في هذا بدعاء الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) في بداية كتابه (البيان والتبيين)؛ إذ يقول: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَوْلِ، كَمَا وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْعَمَلِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ التَّكَلُّفِ لِمَا لَا نُحْسِنُ، كَمَا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجَبِ بِمَا نَحْسِنُ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ السَّلَاطَةِ وَالْهَذَرِ، كَمَا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعِيِّ وَالْحَصَرِ، وَقَدِيمًا مَا تَعُوذُوا بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِمَا، وَتَضَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ فِي السَّلَامَةِ مِنْهُمَا»^(١).

إنَّه دَعَاءٌ يَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَصَحَّحَ اللِّسَانَ وَيُؤَصِّلَهُ، وَيُصْلِحَ الْقَلَمَ وَيَكْمِّلَهُ، وَيُخَلِّصَهُ مِنَ النِّوَاقِصِ وَالْعِيِّ وَالْحَصَرِ، فَهَذِهِ الْمَطَالِبُ هِيَ عِدَّةُ الدَّاعِيَةِ، وَمَرْكَبُهُ إِلَى النِّجَاحِ.

ب - الحضور:

وأما الحضورُ فهو المستلزمُ الهام الثاني، الذي يجب أن يوفِّره الكاتبُ لنفسه ولقلمه، كي يبقى صاعداً في سلم الارتقاء الزماني والمكاني.. ونعني بالحضور:

١ - رحلة في العصر: تجعله ابن وقته، الذي يجاري ببيانه فرسانَ عصره، مرتقياً هامات الكلم الحق، مستمعاً في هذا

(١) المرجع السابق، ص ٧. والسلطة: طول اللسان، والهدر: الكلام الكثير الرديء، والحصر: العي في المنطق، والعي: ضعف النطق.

الشأن إلى كلام الجاحظ: «وإن كنتَ ذا بيانٍ، وأحسستَ من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة، وبقوة المنة يومَ الحفل، فلا تقصّر في التماسِ أعلاها سورة وأرفعها في البيان منزلةً»^(١).

وذلك طبعاً مع ملاحظة ما يلي:

- قالتِ العربُ: «مقتلُ الرجلِ بينَ لحييه وفكيه» أي: في لسانه، لذا وجب حفظُ اللسان والقلم بالحكمة والعقل، وتجنبيهما الخطلَ والتزيدَ، والتكلمَ أو الكتابة التي لا تراعي الأفهام والظرف، أو المتلقين وحاجاتهم وما يدركون؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس! قولوا بقولكم، ولا يستفزكم الشيطانُ، فإنما أنا عبدُ الله ورسولُهُ».

وقد كان هذا القول من الرسول ﷺ ردّاً على وفد من العرب حاولوا مدح رسول الله ﷺ بتزيد..

- وقال أبو العتاهية:

والصَّمْتُ أَجْمَلُ بِالْفَتَى

مِنْ مَنْطِقٍ فِي غَيْرِ حِينِهِ

(١) المرجع السابق: ١/١٣٩.

وكان سهل بن هارون يقول: «سياسةُ البلاغةِ أشدُّ من البلاغةِ، كما أنَّ التوقِّيَ على الدواءِ أشدُّ من الدواءِ»^(١).

فلكل كتابة سياسة يجب أن تستوعب الظرف، وتغرف من معارف العصر، وتتوقَّى من الغياب عن واقع الحال، أو الغموضِ المذهبِ للفهم، والرأي الذي يجيء في غير وقته، وعلى غير ارتياح من ذهن مستمعه.

والخلاصة: أن رحلةً في العصر تستوجبُ الاطلاعَ عليه، واستيعاب أحواله ومآلاته وحراكه، والأخذَ بسياسةٍ في الكتابة واضحة الأسلوب، لاجبة الطريق، محددة الهدف، بعيدة عن الخبط العشوائي، وكلُّ ذلك يحتاجُ إلى التَّيُّنِ والتَّثَبُّتِ، والحذر من الزلل في الكلام والرأي، فضلاً عن الموضوعية والحلم والعلم والتعلم^(٢).

٢. - ومعرفة بقدر النفس وإمكاناتها: قال أفلاطون: «لكلِّ تربيةٍ غَرْسٌ، ولكلِّ بناءٍ أُسٌّ».

(١) المرجع السابق: ١/ ١٣٧.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٣٦.

وقال الشاعر:

إذا لم تستطع شيئاً فدعهُ
وجاوزهُ إلى ما تَسْتَطِيعُ

فاحرص على هذه المعرفة بدقة، فهي منجية من الحرج
والسقوط والهلاك، وانظر إلى قول الشاعر بتأمل:

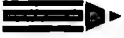
يموتُ الفتى مِنْ عَثْرَةٍ بلسانه
وليس يموتُ المرءُ مِنْ عَثْرَةِ الرَّجُلِ

٣ - ومعالجات تطرق أبواب القلوب بقوة: فقد قيل في
كلام قاله المأمون في مسألة: «كان - والله - كغيث وقع على
أرض عطشى»^(١).

وقال المتنبي عن الكلام المؤثر:

إذا ما صافح الأسماع يوماً
تبسمتِ الضمائر والقلوب

فكيف يتحقق لك ذلك السحر من الكلام يا صاح؟..



- بمتابعة أحوال الناس، ومعرفة قضاياهم واهتماماتهم،
وتناول ذلك كله في المعالجة.

- معرفة الظرف المناسب، والوعاء المناسب للكلام
المعالج، بحيث يكون الكاتب كالطبيب الحاذق
يعرف أين يضع دواءه، وكيف ينتفع به.

- الابتعاد عن اجترار الأفكار والحلول، والإعادة والرد،
والمراوحة عند ما هو مطروح من معالجات، وإن كان
بأسلوب جديد.. وهذا يعني الابتكار.

- أخذ زمام المبادرة دائماً ما أمكن ذلك، فالبادئ هو
صاحب السبق ومحور الحوار، وقلما تجور عليه
الساحات.

- تسجيل كل ما يمرّ بك، وكل ما تسمع وما ترى، ولا
تعتمد على الذاكرة، فقد تخونك.. وأنت بعد ذلك
بالخيار، تنتقي من الموضوعات والقضايا ما يلائم
اللحظة، وما يغطي الفكرة.

ج - التفوق بالإضافة:

١ - وأول إضافة تتفوق بها أيها الكاتب المؤمن أن تكون كلمتك هي موقفك، يبرز منها صلاح أمرك، وعلو خلقك، وصدق حالك؛ فقديمًا قال عُتْبَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ لِمُؤَدَّبٍ ولده: «ليكن إصلاحك لولدي إصلاحُ نفسك، فإنَّ عيونهم معقودةٌ بعينيك...».

٢ - والثاني من أدوات التفوق بالإضافة أن تكلم الناس بما هم في نَهِمٍ إليه، وشوقٍ إلى سماعٍ وقراءةِ الرأي السديد فيه.

٣ - واجعل دائماً الحقَّ ضالَّتكَ، والسدادَ مطلبَكَ، والمرءَ منبوذاً عندك، والصدقَ ديدنَكَ، ونبذَ الشوائمَ مذهبَكَ، تكن من المتفوقين القريبين من القلوب والعقول.

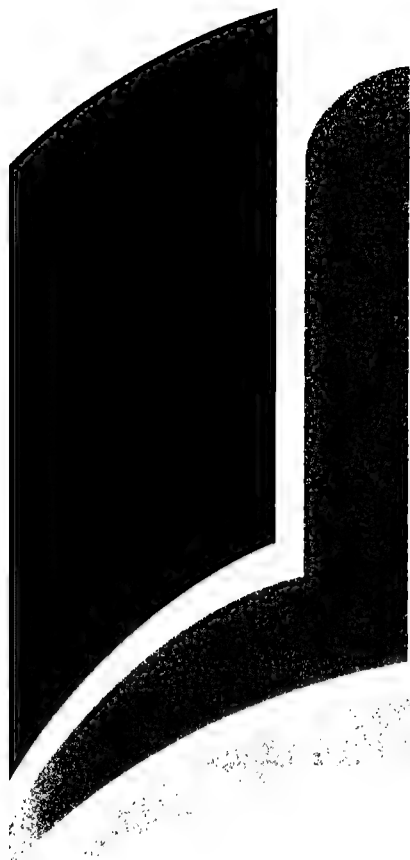
٤ - واستفد من صنع غيرك، ولا ترفع الأنف، فإنَّ الحكمةَ ضالَّةُ المؤمنِ أنَّى وجدها فهو أحقُّ الناس بها.

٥ - واطرقِ المعالجةَ البكرَ السديدةَ تفز بالنتيجة، وتقرَّ عينك بالإضافة الجديدة، وتحرز التفوق والقبول، وتُقبِلُ



عليك العيون بالمتابعة والاهتمام، وتأخذ مقامك المتقدم
بين أضرابك من أهل الكتابة والآداب.. فضلاً عن شدِّ
أزرك بالتوفيق.. والله تعالى أعلم.

* * *





الفصل السادس

حديث في الأسلوب

١ - الأسلوب هو الرجل .

أصبحت الآن على ثغرة، وغدوت تمتثل لروعة حديث نبيك ﷺ، فتدفعك الحمية الإيمانية إلى الالتزام بمطلبها: «فلا يؤتين الإسلام من قلبك».

وعندئذٍ لا بدّ أنك تسمعُ حفيف الحَرْفِ يناوشُ قلبك، وخفق الكلمة الندي الناعم يراوِدُ شفّيتك، لينطلقَ مخطوطاً يسطّره طرفُ قلمك، فتمتلئُ نهاراتك بحبّ مهنتك، وتضج المعاني في أرجائك، مبتغية الصعود إلى هامات العلا، وامتلاك أسرار البيان المصفى، وارتقاء كاهل الاستكشاف في عالم التميز وعالم نيل المراتب، اللذين يتعدان بك عن السقوط في دنيا التقليد المزري لموهبتك، والقاعد بك عند حدود الرضا بالقليل من الاهتمام بما تقول وتكتب، والرديء المكرر من المعاني والأفكار؛ وهي حدودٌ كما ترى لا تليق بمن أراد المضي خفيفاً من المؤن والأثقال ومطالب الجسد، كي يكون

ارتقاؤه إلى القمة هيناً لَيْنِ العريكة، إذ إنَّ تخفيفِ المؤنِ يحثُ صاحبه على نيلِ المراتب، كما قال ابن الجوزي^(١) رَحِمَهُ اللهُ.

وأنت في كلِّ هذا مدعوٌّ إلى التيقُّظِ لجملةِ قِلتَ قديماً: «الأسلوبُ هو الرجلُ»، ولا أظنُّكَ إلا راغباً في أن تكونَ الرجلَ المتميزَ، الذي يبتعثُ المعاني والأفكارَ في الألفاظِ الحيةِ المتناغمةِ المنسجمةِ مع مستوياتِ المستقبلين، ولا تريدُ أن تكونَ الحرفَ البليدَ، الذي يساكنُ الوحشةَ والغربةَ، ويضربُ الأمثالَ العاجزةَ عن الوصولِ، ويبعثُ الصورَ القابعةَ في أغوارِ أصحابها، لا تغادره إلا لترتدَ إلى صدره وقلبه وعينه؛ حسيرةً المردودِ، مبحوحةً النداء، واهنةً الخطأ في عالمِ التأثير والإجابة.

وإنك إذن داخلٌ من بَوَّابةٍ لتفلَّ جحافلِ الكلمات، وتمتلكُ أسبابَ الابتكارِ في دنيهاها، وتصنعُ من عالمها ما يجعلُكَ تفرشُ الأزهارَ في طرقاتها، وتشرُ الدرَّ في ساحاتها، وتنوِّعُ الأساليبَ، فتنتقلُ بها من واحدٍ إلى آخرٍ (تطريةً لنشاطِ السامعِ، وإيقاظاً للإصغاءِ إليك)^(٢)، وهذا كُلُّهُ يتطلَّبُ منك أن تكونَ يقظَ الحاسةِ، حاضرَ اللحظةِ، لا قطعاً مجداً للعناوين، وصائغاً مجيداً للمعاني

(١) صيد الخاطر، ص ٢٢.

(٢) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، ص ٢٧٥.

بما يميزك، ومنوعاً مرناً في الأسلوب، وناجحاً نشطاً للحياة في الحروف، متأقلاً طويلاً في تراكيب الكلمات ورصفها جنباً إلى جنب، بما يخترع لك الأسلوب الفرد العالي.. لتحظى من جملة: (الأسلوب الرجل) بأعلى نتائجها، ومغدق ظلها، ويانع ثمرها، حاديك في ذلك كله الإعجاز القرآني، والبلاغة الربانية التي تمثلت في كل كلمة وحرف وجملة وتركيب، وردت بشكل معجز في النص الرباني الكريم..

ألا ترى معي كيف أن الجملة القرآنية: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ أَلْفِظٍ﴾ [الملك: ٨] أدخلت - كما قيل - ابن قتيبة إلى بوابة الدراسات البلاغية؟ كون (النص القرآني الكريم هو الأمثل لدراسة الصور الجمالية في النص العربي)^(١).

٢ - الكتابة فيما تحذق:

كي تكون كاتباً مفهوماً، تقدّم للناس رؤيتك عن الأحداث والأفكار في هالة من الكلمات والتراكيب الجميلة المقنعة الساحرة، يجب أن تتذكّر أن الكاتب لا يبدع ويتفوق إلا إذا دخل من الباب الذي يعرفه حق المعرفة، ويحذق في ولوجه

(١) حيوية اللغة بين التحقيق والمجاز، د. سمير أحمد معلوف، ص ٢١٨.

ومعالجة إشكالاته، ويطاوعه قلمه فيه للسير فوق القراطيس بسلاسة وعدوبة، إذ إن فتح منافذ كثيرة يستجرُّ الكاتب إلى الضعف والوهن في جميع الأشكال الكتابية التي يباشرها، بينما الاختصاص، وبذل معظم الجهد في التحسين المستمر والتطوير الدائم للموهبة فيما يحذق الكاتب، هو الذي يضعه على عتبة النجاح، ثم الإبحار في عالم الإنجاز، الذي يأتي بالقبول ووصول الصوت وسحر الكلمة والحرف، فالشاعرُ يجب أن يكونَ جهده الأكبر في تطوير حرفه الشعري، حتى يصل فيه إلى المستوى المسموع والحضور المؤثر الفاعل..

والروائي أو القاصُّ يجب أن يكون جهدهما الأكبر في تطوير آلياتهما وتقنياتهما الفنية والموضوعية، وذلك كي يستطيعا فتح أبواب القلوب أمام ما يطرحانه من فكر وعمل وتوجهات.

وهذا الذي قلناه آنفاً ينسحبُ حكمه على كلِّ لونٍ من ألوان الكتابة أدبية كانت، أم علمية، أم سياسية، أم اجتماعية، أم غير ذلك.

وليس معنى ذلك أن يقف الكاتبُ بموهبته عند نوع واحد من الكتابة لا يبرحه، بل إننا نقولُ: إنَّ الكاتبَ الذي يجدُ في نفسه إمكانيات للكتابة في موضوع آخر أو مواضيع أخرى،

فعليه أن يفتح لهذه الإمكانيات نوافذ تتنفس منها، وتجلي ذاتها من خلال تلك النوافذ، حتى إذا حاولت هذه مزاحمة الموهبة الكبرى عنده، كبح جماحها، فأنزّلها قدرها، وجعل لها خلوف الوقت والإقدام، في حدود العدل، الذي لا يكبت القدرات، ولا يجور على الحذق.. وإن مراعاة ذلك يشكّل قضية هامة لدى الكاتب المتوازن، الذي يريد لكتابه ارتقاء مضمار التطور والتقدم، واحتلال المواقع المتقدمة دائماً.

وقد نبّه الجاحظُ إلى قضية معيار للإفهام من خلال الكتابة يقوم على الحذق، (أي: أن يقوم على معرفة عالية بأساليب العرب في كلامها).

وهذا ما يجعلنا نفهم فهماً عميقاً قسم ربّ العزة بالقلم والحرف: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، كما يجعلنا نفهم الأهمية الكبرى للعلم المسطور بالقلم فوق القرطاس، الذي ذكره ربنا في كتابه الكريم: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤].

وإنّ هذا الحذق بأساليب العرب في كلامها (ويأتي على رأسها ومقدمة أمرها ضبط القرآن الكريم للغة العرب وأدائها وتيسير ذلك لكل العصور)، هو المطلوب الأول للكاتب المؤمن، المقبل على خوض معركة الحرف.

وقد بَيَّنَّ الأستاذُ الرَّافعي رَحِمَهُ اللهُ عواقب الضعف في ذلك، إذ قال: «وَأَنْتَ قَدْ تَرَى الضعفاء الذين لَا يحكمون منطقهم، وما يصنعون بالأساليب المدمجة والفقر المتوثقة إذا هم تعاطوها، فنطقوا بها، حَتَّى لِيَصِيرَ معهم أجود الكلام في جزالته، وقوة أسره، وصلابة معجمه.. إلى الفسولة والضعف، وإلى البرد والغثاثة، كأنما يموت في ألسنتهم موتاً لَا رحمة فيه»^(١).

٣ - وصايا عامة .

أ - اتَّخِذْ مِنَ الْكِتَابَةِ رِسَالَةً وَمَهْمَةً إِيْمَانِيَّتَيْنِ، تَبْتَغِيَانِ تعريف الناس بالطريق الذي يسعدهم، ويخلصهم من الجري خلف الوهم الذي يسمونه الحداثة، وهو في الحقيقة الفوضى المؤدية إلى الضياع.

ب - التزم حدود الاعتدال والصدق والموضوعية فيما تكتب أو تقول، وابتعد عن التهويل والكلام الذي لم تتيقن من صحته، حَتَّى لو كَانَ الكلام عن عدوك، وذلك امتثالاً لقوله تعالى: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ» [المائدة: ٨].

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٨١.

ج - ابتعد عن أساليب الشتم والإقذاع في الكلام، واجعل كلماتك بمستوى هدفك ورسالتك ومهمتك التي اخترتها لنفسك، واحرص على أن تكون رفيقاً حليماً في غير ضعف، وذلك امتثالاً لتوجيه رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّفْقَ مَا كَانَ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ».

وقوله ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَانِ، وَلَا اللَّعَانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيِّ».

وتوجيهه ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً مُهْدَاةً» و«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ».

د - اختر من الموضوعات والمعالجات ما يكون قريباً من فهم المتلقين، وما يهمهم، ويحاول تقديم الحلول لهذا الذي يهمهم، وذلك مصداقاً لقول الله تعالى: «وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا» [النساء: ٦٣].

وقوله جلّ وعلا: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا» [البقرة: ٨٣].

هـ - اجعل وقت الكتابة عند اعتدال مزاجك، وفي أحسن ظروفك، وضمن الساعات التي تفتح فيها قريحتك، وتكثر

فيها التعبيرات والأفكار تكاثراً يجعلها على أطراف قلمك،
وحينئذٍ فإنك لا تجد لك بُدّاً من تناوله، وتسجيل خواطرك،
فإنّ ذلك أيسرُ لك، وأسلسُ لعلمك، وأقومُ للسانك وخطك،
وأبلغُ في التعبير والتأثير، إذ الكلامُ حينئذٍ يكون عفواً لا
تكلفُ فيه، ودفقاً تتعاون على ابتعائه العواطف والأحاسيس
والعقل والخيال، فيخرج نوراً متكامل الخلقه والجمال.

و - لا تنسَ أن تمهر عملك بالتوثيق، وذلك بالإكثار
من المؤيدات، ولكن دون إسرافٍ، وتزيين الكلام
بالأمثلة والأمثال المتداولة، ولكن دون إفراط أو إقذاع
أو تطويل.. فإنّ التوثيق يدعمُ رأيك، ويشدُّ عضدك، وإنّ
ضرب الأمثلة والأمثال يفسّرُ قولك، ويزيدُ من وضوحه
وبيانه، ويقربه من الناس، ويحبّبه إليهم.. وذلك، كما
تعرف، أسلوب من أساليب القرآن الكريم في البيان
والإظهار والتأثير، فاحرص عليه ولا تفوّته..

وتأمل جمالَ وقربَ المعنى والمبنى من الأفهام في
قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ
يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

٤ - في مفردات الأسلوب:

قال ابن أبي داود: «القلمُ سفيرُ العقل، ورسولُ الفكر، وترجمانُ الذهن»^(١).

فلما كانت الكتابةُ سفيراً لعقل الكاتب لدى المتلقين، ورسولاً لفكره، وكانت رسالة ومهمة إيمانية لدى الكاتب المؤمن، فقد وجبَ الكثيرُ من العناية بالأسلوب، والدراية النظرية والعملية بتنوعاته وفتوحاته التي تيسر الطريقَ إلى قلوب المتلقين وعقولهم وعواطفهم وأفهامهم..

وفيما يلي بعض الأمور التي تيسر الأسلوب، وتعلي مقامه:

أ - تخير اللفظة الملائمة للمعنى المراد وللتركيب الجملي الذي تريد تسطيره، بحيث تبني بناءً منسجماً في الشكل والجوهر والموسيقى، وانسيابية المجموع:

كان ابن المقفع كثيراً ما يقفُ إذا كتب، فقليل له في ذلك، فقال: «إنَّ الكلامَ يزدحمُ في صدري فأقف لتخيره»^(٢).

(١) محاضرات الأدباء والبلغاء، ص ١١٣.

(٢) أدب الكاتب، لابن قتيبة، ص ١٠٢.

ب - ومن حسن الأسلوب أن تتخير اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم، ويتداولونه في زمانهم، فلا هي بالوحشية الغريبة المحتاجة للعودة إلى المعاجم، ولا هي بالعامية المغرقة المفضية إلى اللحن^(١).

ج - البعد عن التكلف في الأسلوب، والإغراق في البحث عن الجماليات البيانية على حساب المعاني والمباني، فقد قال شيخ البلغاء الجرجاني: «بحيث إنه من فرط الشغف بأمورٍ ترجع إلى ما له اسم في البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليُفهم، ويقول ليبيّن»^(٢).

د - توصل إلى المعنى بأقصر الطرق، فلا تكثر من الثروة والحشو غير المفيد، وذلك من غير إيجاز مُخلٍ، فقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ الثَّرَاوَنُ الْمُتَفِيهِقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ».

هـ - احرص على مراعاة أحوال الناس الذين تكتب إليهم، وتفقد كلامك كي يكون ملائماً بالمقام والمناسبة،

(١) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص ٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٩.

وهذا هو الأسلوب البلاغي القرآني، كما هو أسلوب البلاغ الرسالي الذي جاء في كلام المصطفى ﷺ، وهو ما قال عنه ابن قتيبة: «مَنْ سَمِعَ كَلَامَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا يَقْنُ أَنْ لِلْعَرَبِ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخُطَابِ»^(١).

وقد قيل لبعضهم: كيف ترى إبراهيم الصولي؟.

فقال: يولد اللؤلؤَ المنشورَ منطقَه، وينظم الدرَّ بالأقلام^(٢).

و - انتقِ السهل من التراكيب المنسجم مع المعنى دون ركافة أو نزول في الأسلوب، فقد قال ابن قتيبة: «نستحب له - إن استطاع - أن يعدل بكلامه عن الجهة التي تلزمه مستثقل الإعراب»^(٣).

ز - اهتم بالتنقيح ومعاودة القراءة، وذلك ليستقيم لك الكلام، وتنسجم الكلمات والألفاظ بعضها مع البعض الآخر، وبالتالي مع المعنى العام المراد، ليصل ذلك المعنى إلى الناس بأقصر الطرق وأفخم تعبير، ومن

(١) أدب الكاتب، لابن قتيبة، ص ٩.

(٢) محاضرات الأدباء، ص ١٠١.

(٣) أدب الكاتب، لابن قتيبة، ص ١٧.

مقتضيات ذلك، أن تبحثَ عن تأكيد المعنى بالمترادفات دون تطويل أو حشو، واستعمل الجُمْلَ القصيرة فهي أدعى للفهم والانسجام ونقل المعنى بسهولة.. كما أنه من مقتضيات ذلك العناية بالصنعة دون تكلف، وأن تسلم العبارة للعبارة بسلاسة، ودون استئصال للانتقال من قبل القارئ.

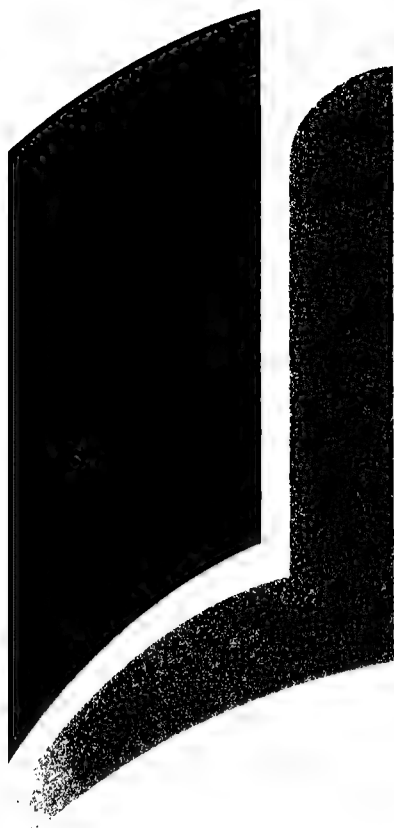
ح - ابتعد عن تجميد المعنى في الكلمة، وذلك بانتقاء الألفاظ المرنة، ووضعها في العبارة الرفيفة؛ حمالة الوجوه، مجنحة المعاني، مع مراعاة جنس النص ومناسبته ومكانه وجمهوره.

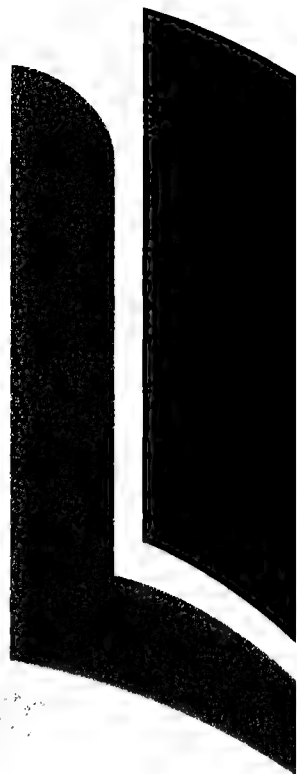
وبعد: فقد كنت متواطئاً معك أيها الكاتب الهُمام، حين اكتفيت بهذا المختصر من القول عن الأسلوب؛ حتى لكأنني حسبتُ أنك أعلمُ مني في البقية الباقية من النصّ المتعلق بذلك ومغزاه العميق، فأنا لا ألام على ذلك الظن، فلا إخالك إلا أنك قد حسبت لكل شيء حسابه، فسيمائك يقول: إنك لا تخشى قطعان الضلال وأنت تختزن كل ذلك الرصيد الذي جئنا على ذكره منذ بدأنا وحتى اللحظة.

فهل أنت موافقي أنَّ المناوئين لإسلامنا من كتبة
السلطين أو كتبة الهوى لا يملكون في مواجهتك سوى
التبشير المتهافت بأنهم الأنبياء الكذبة لهذا العصر؟!..

فاستلِّ قلمك بقوة، وامضِ إلى حيث انتدبك دينك، ولا
تخشَ بأس المدَّعين.

* * *





الفصل السادس

النورُ الآن في قَلَمِكَ،
ومَلِكُ أنامِكَ

١ - مقدمة

ها أنت تقف عند بوابات الفجر، مفتوناً بأحلام أوقدت العزم، واستلّت النورَ من قلب الصمت، لتضعه بين أناملك والقلم.

ها أنت تطردُ الآهات، وتطلقُ للقلم العنان، بعد أن جاءتك المواهب مذعنةً، والتجارب والخبرات دانيةً، والعذب من صولات الذودِ عن الحياض يؤزّها الشوقُ إلى النور طارد العتمة، والروح قد أثقلها طولُ البقاء عند أقدام المراوغة، فانطلقت اليومَ تعدو مع الحنين، تلفظُ التقلب في أحضانِ التردد، والنأي عن الإقدام.

إنه نور البيان، يطوّقُ عنقك بواجب الصعود بالإنسان إلى شمس الأنبياء، حيث ضياء الهدى في قبضته سلاح النجاة، فلا تخش في هذا السبيل شيئاً، وكن «رابط الجأش على

الأغباش»، أي: جسوراً في المواقف، مقداماً في اتخاذ القرار في اللحظة المناسبة، لا تهابُ المواجهة في الحق وللحق.. فأنت بالكلام الذي تقولُ أو تخطُ تتعدَّى نفسك، لتفتق عن أזהير العقل كمائمه، كما قال الجرجاني في (أسرار البلاغة)^(١).

وأتركك هنا مع بليغ العربية الجاحظ، يدعو لك - أيُّها الكاتبُ الداعيةُ المؤمنُ - بالتوفيق والإحسان دعاءً عظيماً بليغاً، وفيّاً بما تحتاجه من أجل انبثاق النور في المعنى الذي تريدُ أن توصل، واللفظ الحامل الجزل.. فقل معي ومع الجاحظ: آمين.. نمهر بها دعاءه البلاغي:

«جَنَّبَكَ اللهُ الشَّبَهَةَ، وعصمكَ من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة سيباً، وبين الصدق نسباً، وَحَبَّبَ إِلَيْكَ الثَّبْتَ، وَزَيَّنَ فِي عَيْنِكَ الْإِنْصَافَ، وَأَذَاقَكَ حَلَاوَةَ التَّقْوَى، وَأَشْعَرَ قَلْبَكَ عِزَّ الْحَقِّ، وَأَوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ الْيَقِينِ، وَطَرَدَ عَنْكَ ذُلَّ الْيَأْسِ، وَعَرَفَكَ مَا فِي الْبَاطِلِ مِنَ الدَّلَّةِ، وَمَا فِي الْجَهْلِ مِنَ الْقِلَّةِ»^(٢).

(١) أسرار البلاغة، ص ٢، طباعة دار المسيرة، ١٩٨٣ م.

(٢) المصدر السابق، ص ٩ - ١٠، نقلاً عن كتاب: الحيوان: ٣/١.

٢ - علامات هاديات على طريق الوصول،

أ - قال ابن المقفع في (أدبه الصغير)^(١): «فليُنظر امرؤ أين يضع نفسه».

نعم فليُنظر امرؤ مؤمن أين يضع قدمه في لحظات يسودها الظلام والضلال، وليعرف أن ما يعينه على ذلك معرفة المهمة الوحيدة التي خلق من أجلها: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» [الذاريات: ٥٦].

فإذا هو عرف حق المعرفة أنه موجود من أجل العبادة، وضع نفسه وقلمه في هذا السبيل، بأبعاده التي تشمل كل أعمال الإنسان في يومه وليلته، التي من أهمها دلالة الناس على الخير من خلال مهنته كاتباً ومبلغاً عن الله ورسوله ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»، «وَمَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً».

فأنت يا صاحب مبلّغ بقلمك وحالك، داعٍ إلى هدى، ودالٌّ على خير..

(١) الأدب الصغير، ص ١٦.

فهذا هو مكانك؛ تسكن في ظلال الكلمة الرقيقة حاملة
 الهم الإيماني الإنقاذي، تريدُ له أن يلامس قلب كل إنسان
 بحنوّ، يملأ الكيان بفيض من الفطرة الخافقة في أصل الروح
 والخلق؛ فهل عرفتَ أينَ موضعك من هذا العالم المحيط
 بك، المائج بكلّ عجائب النفوس، وغرائب الدعوات،
 وضلال الفكر، واعوجاج المناهج، وادّعاء الرجال، ودعاة
 على أبواب النار، تفتح لهم الأبواب والأمكنة، وتسهل
 لهم سبل ارتقاء منابر الخطاب، بينما توصدُ تلك الأبواب،
 وتصعبُ السبلُ على أصحاب الكلمة المرجوة لخير الأمة
 وفلاحها وصلاحتها وتقدمها!..

فإذا كنت الآن - أو من قبل - قد عرفتَ ذلك فالزم
 المكانَ الذي اخترته لنفسك، وابعث فيه الحياة والأمل، فلا
 بدَّ أنك حينئذٍ ستجدُ الاستجابة المرجوة لكلمتك.

ب - قال الأحنف بن قيس: «مَنْ لم يكن له علمٌ ولا
 أدبٌ، لم يكن له حَسَبٌ ولا نَسَبٌ»^(١).

وقال صالح بن عبد القدوس:

وجامعُ العلم مغبوطٌ به أبداً

فلا يحاذِرُ منه الفوتَ والطلُّبا^(١)

فأنت أيها الكاتبُ المؤمن لن تنالَ المنى والمكانَ الذي اخترت، وإحسان الصنعة التي امتهنتَ إلا بالعلم.. فلا تنفكَ عن نشدانه ما دمتَ حيّاً، ولتعلمُ أنَّه مذكورٌ في بطون الكتب وفي خبرات الحياة.. وأول الكتب ورأسها وعظيمُها القرآن الكريم، وثانيها كتب السُنَّة المشرَّفة، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، مما له صلة بهذين الأصلين، ومما له علاقة بالحياة ونفوس البشر ودنياهم، وحركات المجتمعات وإدارتها وتحولاتها، وقيام الدول وزوالها، وارتقاء الحضارات وانهارها، وفخر الآداب وعز علومها وتطورها.

فاضبط رغائبك وطموحاتك بكلِّ الذي ذكرناه آفئاً، تكن مستحقاً للمقام الأعلى، والذكر الذائع المجلى.

ج - قال الله جلَّ وعلا في كتابه العزيز: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ...﴾ [الأنبياء: ١٨].

(١) المرجع السابق نفسه.

وقال مصطفى صادق الرافعي رحمته الله في التعليق على هذا البيان القرآني كلماتٍ مجيداتٍ، نقتطفُ منها ما يلي: «ومعانٍ بينا هي عذوبةٌ تزويك من ماء البيان، ورقةٌ تستروح منها نسيم الجنان، ونورٌ تبصرُ به في مرآة الإيمان وجه الأمان.. وبيننا هي ترفٌ بندى الحياة على زهر الضمير، وتخلقُ في أوراقها من معاني العبرة معنى العبير، وتهبُّ عليها بأنفاس الرحمة، فتتمُّ بسرُّ هذا العالم الصغير..»^(١).

لاحظ أن هذا يعني لك الشيء الكثير؛ الذي أوله ورأسه الأمل والثقة بالتفوق على الباطل، بالحق الذي تحمله، فأنت تقذفُ في وجه الباطل بالكثير.. فهذا الوثوق يتنزلُ على نفس المبلِّغ مثل ندى الصباح على الورقة العطشى، فبينما تنفح روحك توجُّساً وريبةً في الأسباب، يحملك الوثوق على اجتياز مفاظات كؤود من التردد والخوف ورياح الخذلان، فلتمعن التأمل في قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ولتكرِّر قراءة وصف الرافعي لهذا البيان العظيم، ولسوف تجد العافية تجوبُ كلَّ أركان روحك وجسدك،

(١) إعجاز القرآن، ص ٣٠، دار الكتاب العربي، ١٩٩٠م.

ولسوف تجد قلبك طارداً بقوة القنوط، ومنطلقاً بشفافية
وضيئة في سبل التحدي للصعاب، ومتدفقاً بأنهار الأمل،
مثل ينبوع ثرّ نقي متجدد الدفع والصدق والعطاء...



٣ - إبداع واقعي،

وأعني بالإبداع الواقعي: ذلك اللون من الكتابة الذي
يراعي العصر والمحيط المتلقي، بعيداً عن تتبع الغرائب
والمفاجآت الملاءى بوحشي الكلام وغريبه، المنتهية إلى إيراد
الأحداث بشكل بعيد عن أذهان الناس وإمكانية اقتناعهم.

وقد سبق لابن المقفع أن نصّح أحد الكتاب بقوله:
«إياك والتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة، فإنّ
ذلك العي الأكبر».

فَأَرَزْ^(١) إلى الواقعية البليغة التي تحبب المطالعة إلى
الناس، وتجعلهم قادرين على قطف المعاني واستحسانها..

واعلم أنّ لكل عصر أسلوباً وطريقة وشروطاً للبلاغة،
يأنس إليها الناس، ويتحرّون فيها ضالتهم، فأنّت إن خرجت

(١) أَرَزَ: لجأ.

من ذلك كله، وتتبع أساليب عصر آخر أو أرض أخرى أو مجتمعات أخرى، من أجل أن يقال عنك: إِنَّكَ أبدعتَ تطويراً، تكونُ بذلك قد طردت نفسك من ساح القبول والإقبال على علمك، وما تريدُ أن توصله إلى الناس.

ولا يغرنك هذا الضجيجُ أو الفحيحُ اللذان يحاولان أن يسوقا غثاءً من التطوير باسم النهضة أو التنوير، وهما لا يعدوان عندهم أن يصنعا لافئات مضللة زائفة تقول فيما تقول:

- الإسلام السياسي الذي يحملُ دعاوى سياسية أُلْبِستْ ثوبَ الدين، وليست ديناً أُلْبِستْ ثوبَ السياسة^(١).

- استغلالُ الدينِ من أجل الوصول إلى الحكم!..

- كلُّ ما هو غربي تنوير.. وكل ما هو إسلاميٌّ ظلامية!..

- اللغة العربية يجب أن تتفجر، وتحلَّ محلها لغة مقطوعة الاتصال بالتاريخ!... إلى آخر ما هنالك من اللافتات، التي أخذت على عاتقها مهمة تدمير الأمة وثقافتها ومستقبلها.

(١) فرج فودة.. اللواء الأردنية ٤/١٢/١٩٩١م من كتابه «قبل السقوط».

وقد وجدت هذا الادعاءات الضالة مكاناً، ووجد أصحابها لهم مكاناً في عقود القرن الماضي الأخيرة.. فكان ضجيجها وقيادتها وعلوها هو الذي أوصل أمتنا إلى مجموعة الهزائم التي ابتدأت منذ أواخر الحرب العالمية الأولى وحتى اللحظة.

يمكن أن نعدّد من هذه الهزائم:

- سقوط الأمة في فخ التعاون مع الأجنبي الذي اقتسم الغنيمة بعد الحرب العالمية الأولى (ضد دولتهم الإسلامية الجامعة)، وبعد سقوط الوحدة التي كانت تجمع أقطار وشعوب العرب تحت الراية العثمانية.

وهكذا تشرذمت الأمة، وانحدرت في مهاوي (سايكس - بيكو) وأتباعه، وما جرّ من خذلان صنعناه بأيدينا وبواسطة دعاة (التنوير) منا..

- ثم جاءت هزيمة عام (١٩٤٨م)، وضياع فلسطين، وتلتها هزيمة عام (١٩٥٦م) و(١٩٦٧م).. وهزائم الحرب اللبنانية التي غدا الأخ فيها يقتل أخاه.

- وعلى منوالها تمت هزائم حريين خليجيتين، كان المسلم فيها مقابل المسلم، والعربي مقابل العربي، وضحك

منا الأعداء كثيراً.. فقد كفيّناهم قتالنا، إذ قام (التنويريون النهضويون) بمهمة إسقاط الأمة في الخندق العميق الذي أتاح لكل ما هبَّ ودبَّ أن يتناوش رؤوسها، ويقتات على حساب ثرواتها، يلاحق دعاة الإسلام والصالح والتنوير الحقيقي فيها، تحت غطاء دعاوى النهضة والتطوير ليرتفع صوتٌ ومكانةٌ مَنْ يدعون إلى تفجير اللغة^(١).. تلك الدعوة التي تهدف أول ما تهدف إلى قطع الصلة بكتاب الأمة الخالد «القرآن الكريم»، وقطع الصلة بتاريخها وتراثها، حتى وصل الأمر إلى الدعوة لاستعمال العامية واستعمال الحرف اللاتيني بدل الحرف العربي^(٢)، وإلى اعتبار مصر والمصريين أوروبيين وليسوا عرباً مسلمين^(٣).

٤ - وبعد،

فإنك بسلاح الكلمة مجاهدٌ، تتحلّى بالموهبة الأصلية حاضرة طوع بنانك وقلمك، شاهرة سيف الكلمة الطيبة، ساعية لرفع عبء حياة مهیضة عن كواهل المؤمنين، مارسها

(١) أدونيس.

(٢) سعيد عقل.

(٣) طه حسين.

عليهم جناة الكلمة الخبيثة وما يزالون، فقد ظلّ الثغر خاوياً - أو يكاد - من الحراس الخُلص الأَصلاء، الذين يدفعون بكلّ جهدهم في المعركة، ويفرغون الوسع فيها، مزوّدين بالمعرفة الشاسعة الأبعاد، والفكر النير السديد، والعزيمة الناضجة الحديدية، حاديهم فيها دائماً وأبداً بعض النصائح، التي يجب أن ترافقك، ما دام نَفْسٌ يتردّد بين جنبيك:

أ - أن تتأكد أبداً أنك فيما تكتب وما تتكلّم لا تخرج عن حدود الهوية والخصوصية، اللتين تميزان الأمة، وتعطيانهما معناها ومكانها ودورها في الوجود.

ب - أن تكون دائماً يقظاً وحذراً من الغزو الثقافي والفكري والحضاري للشخصية المؤمنة، فإنّ ذلك يحدث في عصرنا بصور شتى ملتبسة متخفية في أردية باهرة تضيع وعي الجماهير، وتستلب في كثير من الأحيان نخبهم ومثقفهم قبل أن ينتبهوا.

ج - ولتذكر دائماً: أنه كلّما كان المتصدّي للغزو متمسكاً بدين الأمة الذي هو رمز هويتها وقوام وجودها، وعزّ مكانتها.. فإنّ الهجمة تكون أشرس، ووسائلها تكون أعقد

وأبعدَ وأقوى.. ومهمتك حينئذٍ تكونُ أصعبَ، وعزائمُك يجب أن تكونَ أمتنَ وأعزَّ.

د - ولتكن دائماً ضمن قاعدة الانطلاق، المتمثلة بالاعتزاز بدينك وعقيدتك، وخصوصية أمتك، مليئاً بكثير من مخزون الأمل والتفاؤل والثقة بوعد الله بالنصر والتمكين لهذا الدين في نهاية المآل...

هـ - إنها أمانة، وإنك مؤتمنٌ، وأنت إن لم تؤدّها حقّها بالكامل، فاعلم أنّك على حافة زيف، ينحرف بك إلى الخزي والندامة.. موشومين بالهزيمة، عارين من كل حجة.

و - فارتشف أخي الكريم من رأس النبع، وأزح من طريقك كلّ الغشاء والزبد، وادفن إلى الأبد جمر الالتصاق بالتراب والطين في أضرحة التردد، وابعث بهما بقوة مع خمود اليأس هديةً إلى الآخر المصارع، راجياً أن يعلي الله بكلمتك كلّ أمثلة الخير وأسرعة النصر..

الفصل الأول

مكانة الكتابة والكتاب

- ١ - تمهيد ٧
- ٢ - ما جاء في أهمية الكتابة والكتاب ٨

الفصل الثاني

الموهبة

- ١ - نظرة في الواقع ١٥
- ٢ - ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ١٦
- ٣ - بماذا تتجلى الموهبة وتعرف؟ ١٨
- أ - الذكاء الجيد ١٩
- ب - الخيال المتوازن ٢٠
- ج - الهمة العالية والثقة بالنفس ٢٢

الفصل الثالث

تنمية الموهبة

١ - المؤمن والكتابة ٢٧

٢ - تنمية الموهبة ٢٩

البند الأول: علاقة العقيدة والسلوك والأخلاق

بترقية الموهبة وتنميتها ٣١

البند الثاني: الاطلاع الواسع على فروع المعرفة ٣٥

١ - كلام في المعرفة ٣٥

٢ - موهبة مطلعة ٣٨

٣ - تقويم الأداء ٤١

البند الثالث: الاطلاع الواسع والمستمر ٤٤

١ - البرعم يتطور ٤٤

٢ - آفاق الاطلاع ٤٦

أ - العيش مع القرآن الكريم ٤٨

ب - أن تتفتح البراعم من نسغ السُّنة

وبيان رسول الله ﷺ ٤٩

ج - الأخذ من كلِّ علم وفنٍّ بطرف ٥٠

٣ - الحصن الحصين والمرجعية القويمة ٥٢

البند الرابع: المران والتجريب وتهذيب اللسان ٥٤

١ - عفواً ما الذي تهدف إليه تماماً؟ ٥٥

٢ - كيف تصنع في البدايات؟ ٥٦

أ - محض المعاناة ٥٧

ب - التجريب والتمرين ٥٨

ج - النزول إلى الساحة ٥٩

الفصل الرابع

السير قدماً: التأكيد المُلح على العقيدة والسلوك

- ١ - لماذا التأكيد؟ ٦٥
- ٢ - محاولات لاكتشاف الحقيقة بعيداً عن العقيدة ٦٧
- ٣ - انتفاش الباطل ٦٩
- ٤ - تهافت ما يكتب بعيداً عن القضية ٧١

الفصل الخامس

خطوط الارتقاء

- ١ - لماذا؟ وإلى أين؟ ٧٧
- ٢ - كيف تستقل خط الصعود؟ ٧٩
- أ - التأصيل ٧٩
- ب - الحضور ٨٣
- ج - التفوق بالإضافة ٨٨



الفصل السادس

حديث في الأسلوب

- ١ - الأسلوب هو الرجل ٩٣
- ٢ - الكتابة فيما تحذق ٩٥
- ٣ - وصايا عامة ٩٨
- ٤ - في مفردات الأسلوب ١٠١

الفصل السابع

النور الآن في قلمك وملك أناملك

- ١ - مقدمة ١٠٩
- ٢ - علامات هاديات على طريق الوصول ١١١
- ٣ - إبداع واقعي ١١٥
- الفهرس ١٢١